Mngool.com

عِبادُ الرَّحْمانِ
في سورةِ «الْفُرْقانِ»

محمد بن عبد الكريم الجزائري

مؤسسة المعارف للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
1417 هـ ـ 1996 م
بيروت ـ لبنان

مؤسسة المعارف للطباعة والنشر بيروت ـ لبنان

يطلب من مكتبة المعارف ص ب ١١/١٧٦١ بيروت ـ لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

وبالصلاة والسلام على محمّد وآله وصحبه

صِلةُ العباد بربّهم

إنّ صِلَةَ العباد بربّهم لَصِلَة «روحية أزلاية»؛ إذْ قدْ سَبَقَتْ هذه الصّلة الربّانيّةُ أجسادهم في الوجود، وذلك عندما أقـرّوا بربوبيّته ـ تعالى! ـ وتوحيده جلّ جلاله! قال عزَّ مِنْ قائِل: **﴿وإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾**[1].

فالإنسانُ يُولَدُ على الفِطْرةِ، فمتى تغلَّبتْ روحُه على جِسمِه ارْتَقى في العلوّ، والْتَحَقَ بعالَمِ الملائِكَة،

(1) سورة الأعراف. الآية: 172.

وتقرَّبَ إلى خالِقِه ومعبودِه، وكُتِبَ عنده من المقرَّبين.

ومتى تغلّبَ جِسمه على رُوحِهِ هَبَط إلى الأَسْفل، والْتحق بعالَمَ البهائم، وابْتعدَ من خالقه ومعبوده، وكُتب عنده من المُبعَدين.

والأُسْرةُ والمجتمعُ يلعبانِ دَوْراً كبيراً في توجيهِ النَشْىءِ والأهلِ إلى الطّاعة أو الْعِصيان.

قال الله تعالى: **﴿يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾**[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ حَتَّى يُعْرِبَ عَنْهُ لِسَانُهُ؛ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»[2].

والحكمةُ من إرسالِ الرُّسل إلى العبادِ قد كانت من أجل تذكيرِهِمْ بعدما نسُوْا إقْرارَهُم بربوبيَّةِ الواحدِ القهار، واعترافَهم بخالقِ الجنَّةِ والنّار فَعَلَى هذا

(1) سورة التحريم. الآية: 6.

(2) رواه الطَّبَراني وغيره، عن الأسود بن سريع.

الأساسِ لا يُمكن بحال أنْ نَزِنَ الدينَ السّماوِيَّ بالعِلْم الحديث؛ فهذا هدفه خدمة الشهواتِ الجسميةِ والأغراضِ الوقتيّة، وذاك هدفُهُ استكمالُ فضائلِ النَّفْسِ وهِدايةُ الخَلْقِ إلى السعادةِ الأبدية وللَّهِ درُّ أبي الفَتْحِ عليّ البُسْتِيّ؛ إذْ يقول في «نونيَّةِ الحِكَم»:

يَا خَادِمَ الْجِسْمِ كَمْ تَسْعَى لِخِدْمَتِهِ
أَتَطْلُبُ الرِّبْحَ مِمَّا فِيهِ خُسْرانُ

أَقْبِلْ عَلَى النَّفْسِ وَاسْتَكْمِلْ فَضَائِلَهَا
فَأَنْتَ بِالنَّفْسِ لاَ بِالْجِسْمِ إِنْسَانُ

والهدفُ من إيجادِ الله لمخلوقاته هو عبادتُهم إيّاهُ، وامتثالُهم أوامرهُ، واجتنابُهم نواهيَهُ. قال جلَّ وعَلاَ: **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾**[1] وليستِ العبادةُ محصورةً في القواعدِ الخمس، المتمثّلةِ في الشهادتين والصلاةِ والزّكاةِ والصّيامِ والحجّ فحَسْب؛

---

(1) سورة الذاريات. الآية: 56.

بل بالإضافةِ إلى ذلك تشمَلُ المعاملاتِ الطّيّبَةَ، والأخلاقَ الحسَنَةَ، والإخلاصَ الكاملَ في حركاتِ العبدِ وسكناتِه، وفي مَنويَّاتِهِ وأقوالِه؛ بينَهُ وبينَ ربِّه، وبينَهُ وبينَ نفسِه وبينَه وبينَ أخِيه.

وممّا تقدّم يتَّضح لنا جليّاً أنَّ مَحَاوِرَ التَّقوى خمسة، وهي العقائدُ، والعباداتُ، والمعاملاتُ، والأخلاقُ، والإخلاصُ في كلٍّ منها ظاهراً وباطناً.

ومجموعُ ذلك يُمكنُ أنْ نُعَبّر عنه بِامتثالِ الأوامرِ واجتنابِ النواهي.

قال الشيخُ عبدُ الواحد بنُ عاشِرٍ في «المُرشدِ المُعينِ على الضّروريِّ من عُلومِ الدّين»:

وَحَاصِلُ التَّقْوَى اجْتِنَابٌ وَامْتِثَالْ
فِي ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ بِذَا تُنَالْ

وقد تَمسَّك بهذه المحاورِ الخَمْسَةِ أُناسٌ رَحْمانِيّون، قدْ «صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ»[1]، فأسماهم أرحمُ الراحمين في كتابه العزيزِ بـ«عبادِ الرحمن».

---

(1) سورة الأحزاب. الآية: 23.

قال عزَّ مِنْ قائلٍ - في الآياتِ الأواخرِ من سورة «الفرقان» -: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً * والَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ،إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً * والَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً * والَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ،وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً * إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ،وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً. وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً * وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزّورَ وَإِذَا مَرُّوا باللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً * والّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِئَايَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ: رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا

قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً * أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا ويُلَقَّونَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَماً * خَالِدِينَ فِيهَا، حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً *﴾.

فبهذه الآياتِ المُحكمات قد وصف الله تعالى خيار المؤمنين وصَفوة المسلمين بِسَتّ عَشْرَة صِفةً، تعود على مَنِ اتّصفَ بها بالخيرِ العميمِ في الدنيا والآخرة.

الصفةُ الأُولى

تعبّدُ هم لِلّهِ وحْدَهُ لا شرِيكَ لَه، وهو المعبودُ بحقٍ .

والعبوديَّةُ للّهِ نَوعانِ اثْنان.

أَوَّلُهُما: عُبوديَّةٌ لربوبيّته تعالى! فهذه يشترِكُ فيها جميعُ الخَلْقِ: مؤمِنهم وكافرِهم برّهِمْ، وفاجِرِهم، فكلّهم عبيدٌ لله الواحدِ القهار، مَرْبُوبُونَ مُدَبَّرونَ بمشِيئَته.

قال اللّهُ تعالى: **﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَواتِ**

وَالْأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْداً﴾[1].

ثَانِيهِما: عُبُودِيَّة لِأُلُوهِيَّتِهِ تعالى! وعبادتِه ورَحْمتهِ، وهذه هي عبوديةُ أنبيائِهِ وأَوْليائِه، وهي المرادُ بها هنا.

ولذلك أضافَ هذا النوعَ من العبوديّةِ إلى اسْمِه «الرحمٰن» إِشَارَةً إلى أنَّ أُولئكَ «العِبَادَ» لم يَصِلوا إلى هذه الحالِ من قُرْبِهِمْ منَ الله، إلاّ بسببِ رحمتِه المُتمثِّلَةِ في أكْمَلِ صِفاتِهِمْ وأَفْضَلِ نُعوتِهم الّتِي وَصَفَهُم بِهَا فِي كِتَابِه.

وصِفَةُ العبوديَّةِ توجد ضِمنيّاً في لفظةِ «عِبادٍ»، المُضافةِ إلى لفظةِ الرَّحمٰن على وجْهِ التَّخصيصِ والتشريف.

و«العبادُ» ـ في الآية الكريمة ـ مفردُهم عبد، وهو كلُّ إِنْسانٍ يُظْهر العبوديَّةَ لله المعبودِ بحقّ، ويرضى بما يفعلُه خالقُه كيفما كان وحيثُما ظَهَر.

ولفظةُ «عبدٍ» هُنَا بمعنى عابد، وهو الذي يُرْضِي ـ

(1) سورة مريم. الآية: 93.

بفِعْلِه ـ ربَّهُ في السّرِّ والعلانيَّةِ وفي السَّرَّاءِ والضرَّاءِ.

وَهُوَ مُشْتَقٌ من العبادةِ التي هي أبلغُ من العبوديَّةِ؛ إذْ هي غايةٌ في الطاعةِ والخضوعِ والتذلُّلِ لله، المُسْتَحِقُّ لذلك والمُسْتَوْجِبِ له من جميع مخلوقاتِهِ على وجْهِ العموم والإِطْلاق.

وحكمةُ إضافةِ لفظةِ «عبادِ» إلى اسْم «الرّحمٰن» ـ دونَ غَيرِهِ مِنْ أسماءِ الله الحسنى ـ تهدِفُ إلى السّرِّ في تخْصيصِ اللّهِ إيَّاهُم برحمتهِ ونِعْمتِهِ عَلَيْهِم.

وهذا إنْ دلَّ على شيءٍ فإنَّما يدُلُّ على عِنايتهِ تعالى! بعبادِهِ ومحبَّتِهِ لَهُم.

قال جَلَّ جَلالُه: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ. . .﴾**[1].

وممّا يزيدُ في شرفِ عُبوديةِ المخلوقاتِ ـ بالنسبة إلى خالقهم ـ أن محمّداً عليه الصلاة والسلام! قد

(1) سورة المائدة. الآية: 54.

وَصَفَهُ الله بهذا الشرفِ السَّرمديّ في آياتٍ كثيرةٍ من كتابه العزيز.

قال جلَّ قدرُهُ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾[1].

ولم يقل: أَسرى بنبيّهِ ـ أو برسوله.

قال بعضُ الراسخين في العلم: إنّ الله قد سَمَح للرسول ـ عليه الصلاة والصلام! ليلةَ الإسراء ـ أن يتمنَّى عليه ـ سُبحانه! ما يريده، فتمنَّى عليه الصلاةُ والسلام أن يَنْسِبَهُ إليه ـ تعالى! ـ بتمامِ العبوديَّةِ له.

فأَجابه الحقُّ إلى ما تمنَّاهُ، ونزل قولُه تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾[1].

ولذلك تمسَّكَ العارفون بالله بإبداءِ العبوديَّة لله تعالى في المظهَر، والالْتذاذِ بها في المَخْبَر، وهم يعتزُّون بها أيَّمَا اعْتزازٍ كَيْفما كانوا وحَيْثُما حلُّوا.

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 1.

قال أبو بكر ابنُ العربيّ في «أحكامِ القرآن ـ عند تفسيرِ الآيةِ الأولى من سورة «الإِسراء» ـ: قال العلماء: لو كانَ اسْمٌ أشرفُ منه (أي: من اسمِ العبد) لسمّاه ـ في تلك الحالة ـ به. وفي معناه تُنشدُ الصّوفيّةُ:

يَا قَوْمُ قَلْبِي عِنْدَ زَهْرَاءِ
يَعْرِفُهَا السَّامِعُ وَالرَّائِي
لاَ تَدْعُنِي إلاَّ بِـ«يَاعَبْدَهَا»
فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي

و«الرحمٰن» هو الاسم الثاني ـ بعد «اسم الجَلالةِ» ـ مِنْ أسماءِ اللَّهِ الحُسْنى.

وهو خاصٌ به تعالى! فلا يجوز أن يُسمَّى بهِ سِواه.

جاء في الحديثِ القدْسِيّ: «أنَا اللَّهُ، وَأنَا الرَّحْمَنُ خَلَقْتُ الرَّحِمَ، وَشَقَقْتُ لَهَا اسْماً مِنِ اسْمِي؛ فمن وَصَلَها وَصَلْتُهُ، ومن قَطَعَهَا قَطَعْتُهُ»[1].

---

(1) رواه الترمذيّ وأبو داود.

ومعنى «الرحمٰنِ» ذُو الرّحمةِ، وهو مُشتق منها على وجْهِ المُبالغة وهو أبلَغُ من «الرَّحيم».

ولذلك قالوا: «يَا رَحْمَنِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ»، وقالوا: يَا رَحِيمَ الدُّنْيَا فَقَطْ.

والأصلُ في الرحمةِ الرّقَّةُ والتَّعطُّف، وهي من الله النِّعمةُ والتَّفضُّلُ والإحسان وإرادَةُ الخيرِ لأهلِه.

ولـم يكنِ اسْمُ «الرَّحمْنِ» معروفاً عندَ الْعرَبِ قبْلَ نـزولِ القـرآنِ الكـريـم بـه، وقـد دلَّ عـلـى ذلـك قـولُـه تعالـى: **﴿وإذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا: وَمَا الرَّحْمٰنُ؟ أَنَسْجُدُ لِمَا تأْمُرُنَا؟ وَزَادَهُم نُفُوراً﴾**[1] وممَّا يؤكّدُ ذلك أنَّ الرسولَ ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ لمَّا دَعا عَلِيَّ بنَ أبِي طالِب أنْ يكتُبَ كتابَ «صُلْحِ الحُدَيْبية» بينَ المُسلمين وبينَ المشركين؛ فقال له ـ لأول مرةٍ ـ: اكْتُبْ: بسمِ اللَّهِ الرحمٰنِ الرحيم»؛ فاعْترضَ على هذه الصّيغةِ سُهَيْلُ بْنُ عمرو المشرِكُ، وقال: «إنَّا ـ واللَّهِ! ـ لا نعرِفُ الرَّحمٰنَ؛ ولكنْ اكْتُبْ

(1) سورة الفرقان. الآية: 60.

بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ»، فقال الرسولُ عليه الصلاة والسلام! لِعَليّ ـ حينئذٍ ـ: «اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ».

فهذا ما يتعلّقُ بالصّفةِ الأُولى لِ«عبادِ الرحمن».

الصِّفَةُ الثانـية

مشيتهم على الأرضِ «هَوْناً». أي: يمشون هينينَ لينين، متحلّينَ بالسَّكينة والوَقارِ والتواضعِ والرِّفق.

امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبلُغَ الْجِبَالَ طُولاً. كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾[1].

وامتثالاً لقولِهِ تعالى أيضاً: ﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ، وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً. إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ واغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ. إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[2].

---

(1) سورة الإسراء. الآية: 37.

(2) سورة لقمان. الآيات: 17، 18.

وعملاً بقولهِ عليه الصلاةُ والسلام: «عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينةِ؛ فَإِنَّ الْبِرَّ لَيْسَ فِي الْإِيضَاعِ». والإيضاعُ هو ضَرْبٌ مِنَ السَّيْرِ السريعِ كالخَبَب.

قال ابنُ قيّيم الجَوْزية ـ في كتابه «زاد المَعَاد ـ: فإنَّ الماشيَ إمّا أنْ يتماوَتَ في مشْيِه، ويمشيَ قِطْعةً واحدةً؛ كأنَّهُ خشَبَةٌ محمولة، وهي مِشيةٌ مذمومةٌ قبيحةٌ. وإمّا أنْ يمشيَ بانْزِعاج واضطرابِ مَشيَ الجِملِ الأهْوج وهي مشيةٌ مذمومَةٌ أيضاً، وهي دالَّةٌ على خِفّةِ عقلِ صاحِبِها؛ ولا سيَّما إن كان يُكثِر الالْتفات حالَ مشْيهِ يميناً وشِمالاً. وإمَّا أن يمشيَ هَوْناً، وهي مِشيةُ «عباد الرحمن»؛ كما وَصعفَهُمْ بها الله في كتابه، فقال: **﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً﴾**.

قال غيرُ واحدٍ من السَّلفِ: بسكينةٍ ووقارٍ مِنْ غيرِ تكَبُّرٍ ولا تَماوُت.

وهي مِشيةُ رسولِ اللّهِ ﷺ؛فإنَّهُ مع هذه المِشْيةِ كان كأنَّما ينحَطُّ مِنْ صَبَب، وكأنَّما الأرْضُ تُطْوَى لَهُ؛

حَتّى كانَ الماشي يُجهدُ نفْسَه، ورسولُ الله ﷺ غيرُ مُكْترِث.

وهذا يدلُّ على أمريْنِ: أنَّ مِشْيتَهُ لم تكُنْ مِشيةَ بتماوُت، ولا بِمَهانة؛ بلْ هيَ مِشية أَعْدلُ المِشْيات». انتهى النَّصُّ.

وإذا كان عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه! يُسرِعُ في مَشْيِهِ فإنْ ذلك كان منه جِبِلَّةً لا تكلُّفاً.

والقَصْدُ والتُّؤدةُ وحسْنُ الصَّمتِ عندَ المَشْيِ من أخلاقِ النُّبوَّةِ، التي بُعِثَ عليه الصلاةُ والسلامُ مِنْ أجْلِ تَتْميمِ مكارمِها.

والمَشْيُ هَوْناً كنايةٌ عن مُطلقِ حُسْنِ السِّيرَة لعبادِ الرحمنِ ظاهراً وباطناً.

وهذا الذي قد عبَّر عنه أبو بكر ابْنُ العربيّ في بَيْتيْنِ يصفُ بهما نفْسه؛ حيْثُ قال:

تَوَاضَعْتُ فِي الْعَلْيَاءِ وَالْأَصْلُ كَابِرٌ
وَحُزْتُ نِصَابَ السَّبْقِ بِالْهَوْنِ فِي الْأَمْرِ

سُكُونٌ فَلاَ خُبْثُ السَّرِيرَةِ أَصْلُهُ
وَجُلُّ سُكُونِ النَّاسِ مِنْ عِظَمِ الْمَكْرِ

ولعلَّ مِشْيةَ عِبادِ الرحمٰنِ «هَوْناً» هي الَّتي أَلْهمت أبَا العَلاءِ المعرّيَّ؛ حتَّى أَنْشدَ فقال:

خَفِّفِ الْوَطْأَ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الأَ
رْضِ إلاَّ مِنْ هَذِهِ الأَجْسَادِ

ولَعَلَّها هي الَّتي أَلْهمتَ ـ أيضاً ـ عُمرَ الخَيَّام؛ حتَّى أَنْشدَ فقال:

فَامْشِ الْهُوَيْنَا إنَّ هَذَا الثَّرَى
مِنْ أَعْيُنٍ نَاصِعَةِ الاخْوِرَارِ

الصفةُ الثالثةُ

قولُهم: «سَلاَماً» لمن يُخاطِبهم من الجاهلين.

ولفظةُ «سَلاَماً» في الآية صفة لمصدر محذوف؛ تقديره: قالوا قولاً «سَلاَماً». أي: تسدداً، وصواباً، وما في معنى ذلك.

فهذه اللّفظةُ جامعةٌ لمعاني الخيرِ كُلِّهِ؛ من حكمةٍ،

وسَدادٍ، وما هو مُستَحسنٌ مِنَ القولِ شرْعاً وعقلاً على وجْهِ الإطْلاق.

وبهذا المعنى نفسِه جاءتْ آياتٌ كثيرةٌ في كتابِ الله العزيز؛ مثْلَ قولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا: سَلاَماً، قَالَ سَلاَمٌ﴾[1]. وقولِهِ تعالى: ﴿قَالُوا: سَلاَمٌ عَلَيْك،سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبّي، إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً﴾[2]. وقولِهِ تعالى: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ: سَلاَمٌ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[3].

ولعلَّ المرادَ من مُخاطبةِ الجاهلين لعبادِ الرحمنِ هو سُؤالُهم إيَّاهُمْ واستفسارُهم عمّا هُمْ جاهلون إيَّاهُ من أحكامٍ شرعيّةٍ وأخلاقٍ إسلاميَّة، فأجابوهُمْ - في رِفْقٍ - بأجْوبةٍ صحيحةٍ، مُلائمةٍ لمُقتضى الشَّرْعِ الحَكيمِ والعقلِ السَّليم.

وهذه الأجوبةُ الحَكيمةُ والسَّديدَةُ هيَ المعبر عنها -

---

(1) سورة هود. الآية: 69.
(2) سورة مريم. الآية: 47.
(3) سورة الزخرف. الآية: 89.

في الآية الكريمة ـ بـ«سلاماً»، الذي معناه الخيرُ المطلق؛ كما تقدّم بيانُ ذلك قريباً.

ولعلَّ مبادىءَ الشريعةِ الإسلاميةِ السَّمْحةِ تأْبى تفسيرَ «سلاماً» ـ في الآيةِ الكريمة ـ بالاستسلام أوِ التّسليم، أو التَّحِيَّةِ، أوِ الصَّفحِ والتغاضي عن بَذَاءِ قولِ الجاهلين.

وذلك لِأَمْرَيْنِ اثْنَيْنِ.

الأمرُ الأوّلُ: بالنِّسْبَةِ إلى مَنْ فسَّرَ لفظةَ «الجاهِلينَ بالكُفَّارِ والمشركين.

فَعَلَى أساسِ هذا التّفسيرِ فإنّ عِزَّةَ المؤمنين تحولُ دونَ الخُضوعِ والذِّلَةِ لمَنْ عداهم مِنْ غيرِ مِلّتهم.

قال الله تعالى: **﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾**[1].

فهل هناك قوم «أَحَبُّ إلى الله ـ بعْد الأنبياءِ والمُرسلين ـ من غير عبادِ الرحمن؟!

---

(1) سورة المائدة. الآية: 54.

وقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

فهل هناك مؤمنٌ - بعْدَ الأنبياء والمرسلين - بَلَغَ عِنْدَ اللَّهِ عِزَّةَ عبادِ الرحمن؟

وبالإضافة إلى ذلك فإنَّ الدينَ الإسلامِيَّ يَنْهَى المُسلمين أنْ يُحَيُّوا الكافرينَ والمشركين، وأنْ يُسلِّموا عليهِمْ.

قال عليه الصلاةُ والسلام: «لا تَبْدَأُوا الْيَهُودَ وَلاَ النَّصَارى بِالسَّلامِ؛ فَإذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ»[2].

وقال: «إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ»[3]. أي: عليكم مَا قُلْتُم:

والسّببُ في هذا النَّهي أنَّ السَّلامَ بينَ المسلمين، أَمْنٌ وأمان ولا أمانَ بينَهم وبينَ غيرِهم من الكافرين

(1) سورة المنافقين. الآية: 8.

(2) رواه مسلم، عن أبي هريرة.

(3) رواه أسامة؛ وهو متفق عليه.

والمُشركين والمُلحدين، فهذه الطوائفُ الثّلاثُ محارِبةٌ لِلإِسْلامِ والمسلمين.

ثُمَّ إنَّ السّلامَ تحيةُ أهحلِ الجنّةِ، وغيرُ المُسْلِمين ليْسُوا من أهِلها؛ بل هم منْ أهلِ النَّار.

فكيف ـ إذَنْ ـ يُحيِّ عبادُ الرحمنِ المحَاربين لهم ولدينهم؟!

وكيْفَ يُحَيُّون أهْلَ النّارِ؛ وهُمْ مِنْ أهْلِ الجنَّة؟!

فإنْ قال قائلٌ: إنَّ عبادَ الرحمن لم يُضمِرُوا معنى حَقيقَةِ السلام؛ وإنّما قالوا: «سلاماً» نُطْقاً فقطْ؛ حتَّى يَسْلَموا من بَذاءِ قولِ الجاهلين.

قُلْنا: فهذه أكبرُ مِنْ أُختِها وأَدهَى ممَّا قَبْلَها! لأنَّ هذا العمَلَ يُعَدُّ نِفاقاً في الشريعة الإسلامية، والمنافقون في الدَّرَك الأسْفَلِ مِنَ النَّار.

فهلْ يصِحُّ في الأذهانِ أن ينافِقَ عبادُ الرحمن ـ وهُمْ مَنْ هُمْ! مِنْ حيثُ منزِلتُهم العُلْيا عند الله ـ ضمائِرَهُمْ الطاهرة، ويُرْضُوا الجاهلين العُنداءَ، ويُغْضبوا خالِقَهم وحارِسَهم ومؤيّدَهُم وواصفهم بأسْمَى

الصِّفَاتِ وأجملِ النعوتِ في كتابه العزيز؟! **﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ!﴾**[1].

الأمر الثاني: بالنِّسبةِ إِلى مَنْ فسَّرَ لفْظَةَ «الجاهلينَ» بالسّفهاءِ والـمُذْنِبين مِنَ المُسلمين فعلى أساسِ هذا التفسيرِ أنّ الرّضى بِبَذاءِ أقوالِ السفهَاءِ والتحَلّمَ على المُصِرِّينَ على الذُّنوبِ يوحي بإقْرارِهم على المُنكر، وعدَمِ أمرِهِم بالمعروف.

والأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المُنكرِ قد أوْجَبهُما الشَّارِعُ الحكيمُ على المسلمين.

وعبادُ الرحمنِ هم أَجْدرُ المسلمين بالأَمْرِ بالمعروفِ والنّهيِ عنِ المُنكرْ قولاً وفعلاً واعتقاداً، ولا يريدون بذلك سوى إصلاح البِلاد وتقويمِ أخلاقِ العباد، ولهم عاقبةُ المتَّقين.

فهذا ما يتعلَّقُ بـ«الصّفةِ الثالثة» لعبادِ الرحمن، وإِلَيْها وإلى اللّتَيْنِ قبلَها يشيرُ قولُه تعالى: **﴿وَعِبَادُ**

---

(1) سورة ص. الآية: 5.

الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً﴾.

الصفةُ الرابعة

إحياؤُهم ليلَهم بالصّلوات، قائمين راكعين ساجدين لله.

وقد قَدَّمتِ الآيةُ السجودَ على القيام؛ مع أنّ السجودَ متأخّرٌ في فعلِ المُصلّي، ولعلَّ ذلَك لِكَوْنِ الْعَبْدِ أَقْرَبَ مَا يكونُ مِن ربّهِ وهو ساجدٌ.

قال عليه الصلاةُ والسلام: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبّهِ وَهُو سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»[1]. أي: إنَّ العبدَ يكونُ قريباً من رحمةِ ربّهِ عندما يكونُ ساجداً له، لأنّ السجودَ هو غايةُ التذلُّل.

فإذا عَرَفَ العبدُ أن نفسَه ذليلةٌ ومفتقرةٌ لخالقها عَرَفَ أنّ ربَّه - وَحْدَهُ - هُو العليُّ الكبير قال عبدُ الرؤوفِ المناوي - في «فَيْضِ القدير»-نقلاً عن أبي بكر

(1) رواه مسلم والنسائي وأبو داود، عن أبي هريرة.

ابْنِ العربي ـ: «لَمَّا جعلَ اللَّهُ الأرضَ لنا ذَلولاً نمشي في مناكبِها، فهيَ تحتَ أقدامنا نطؤُها بها، وذلك غايةُ الذِّلَّة، فأمرنا أن نضعَ عليها أشرفَ ما عندنا وهو الوجّهُ، وأن نُمرّغَهُ عليها، جبْراً لانكسارِها بوضِع الذليل عليها الذي هو العبد، فاجتمع بالسجودِ وَجْهُ العبد ووجْهُ الأرضِ، فانْجبر كسرُها.

وقد قال الله تعالى! في الحديثِ القُدْسي ـ: ﴿أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ﴾. فلذلك كان العبدُ في تلك الحالة أقرَب إلى الله تعالى! من سائرِ أحوالِ الصلاةِ، لأَنَّهُ سعي في حقِّ الْغَيْر؛ لاقِ حقّ نفسِه، وهو جَبْرُ انْكِسارِ ٱلأرضِ من ذِلَّتِها». انتهى النّص.

وعبادُ الرحمن يتأسَّوْن في قيام اللَّيل بعملِ الرسولِ عليه الصلاة والسلاوم فقد كان يقومُ اللّيلَ حتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَماهُ؛ فقيل له: لِمَ تَصْنَعُ هذا وقد غُفِرَ لكَ ما تقدّم من ذنبك وما تأخَّر، قال: «أَفَلاَ أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً»؟[1] وهو استفهامٌ على طريقِ الإشْفَاقِ.

---

(1) رواه البخاري ومسلم وغيرهما، عن المغيرة.

ومن المأثورِ أنَّ الرسولَ عليه الصلاةُ والسلام قال يوماً: «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ؛ لَوْ كَانَ يُصَلّي مِنَ اللَّيْلِ». فمنذ سماع عبدِ الله بن عُمَرَ لذلك ما فاتَتْهُ ليلةٌ حتَّى يقومَ فيها راكعاً ساجداً لله وقد جعل الله قيامَ الليلِ من أوصافِ الصالحين؛ حيثُ قال: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ، وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1].

وقد أمر اللَّهُ تعالى رسولَهُ عليه الصلاةُ والسلام بقيامِ اللّيلِ في عدَّةِ آياتٍ؛ منها قولُه: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾[2].

فإذا كان رسولُ رَبِّ العالمين وخاتِمُ الأنبياءِ

(1) سورة آل عمران. الآيات: 113، 114.

(2) سورة الإسراء. الآية: 79.

والمرسلين قد أَمَرَهُ ربّه بقيامِ اللّيلِ فأمَّتُه مقتديةٌ به في النية والقولِ والعمل؛ لا مَحالة.

وفي مقدّمةِ هذه الأمّةِ ـ من حيثُ الاقتداءُ ـ عبادُ الرحمن.

فهُمْ يَحِنُّونَ إلى غروب الشمس كما تَحِنُّ الطَّيْرُ إلى أوكارِها عند الغروب.

فإذا جنَّهمُ اللَّيلُ واختلطَ الظلامُ وفُرِشتِ الفُرُشُ، ونُصِبتِ الأَسِرّةُ، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه، نَصبوا لربِّهِمْ أقدامَهم، وافْترشوا له وُجوهَهم، وناجوه بكلامه العزيز، وتملَّقوا له بإنعَامِهِ المتهاطلِ عليهم.

فبينَ صارخٍ وباكٍ، ومتأوّهٍ وشاكٍ وبينَ قائمٍ وقاعد، وبينَ راكعٍ وساجد، وهُمْ بعينِ الله يتهجّدونَ حامدين وبسمعِه يتضرَّعونَ شاكرين؛ حتى يَقذِفَ اللَّهُ في قلوبهم نورَ هدايتِه ويُدخلَهُمْ في خِضَمِّ رحمتِه، وهو مُلْهِمُ المُهتدين، وملْجأُ المُذْنبين. فهذا ما يتعلّق بالصفةِ الرابعة وهي المشارُ إليها بقوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً﴾**.

الصفةُ الخامسةُ

مواضبتُهم على الدّعاء في السَّرَّاءِ والضَّرَّاء، واتّكالُهم على رحمةِ الله؛ لا على أعمالِهم لاعتقادِهِمْ أنّ ما يُصيبُهم من خيرٍ فمِنَ اللَّهِ وبفضله، وما يُصيبُهم من شرّ فمِنْ أنفُسِهِم وبعدْلٍ من اللَّهِ.

قال عزّ مِنْ قائل: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾[1]. وقال عليه الصلاة والسلام: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَداً عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قالوا: ولا أنتَ؟ يا رسولَ الله! قال: «وَلاَ أَنَا؛ إلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَلاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ؛ إمَّا مُحْسِناً فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْراً، وَإِمَّا مُسِيئاً فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ»[2].

وإذا كان لكلّ مُسَبَّبٍ سببٌ فالدعاءُ سببٌ في اسْتِمْطار رحمةِ الله.

وهو أرقى أنواعِ العبادِةوأشرفُها عِندَ اللَّه؛ بلْ هو

(1) سورة النساء. الآية: 79.

(2) رواه البخاريّ، عن أبى هريرة.

روحُها وسرُّها، لِمَا فيه من إظهارِ التذلُّلِ والخضوعِ له سبحانه، ولِما فيه ـ أيضاً ـ من الإذعانِ لهُ بالرُّبوبيّة، والإقبالِ عليه والإعراضِ عمّا سواه.

والدعاءُ من هَدْيِ الأنبياءِ والمرسلين.

وقد أمر اللَّهُ به عبادَه، وكان سبباً للسُّقْيا عندَ الْجَدْب.

وقد شُرِعَ في صلاةِ الجنازةِ رجاءَ الْمَغْفرةِ للميِّتِ؛ ولو لم يكنْ فيه نفعٌ لم يُشْرَعْ في ذلك.

ويكفي أنّ قراءةَ الفاتحةِ في الصلاة فرضٌ، وأنَّ الشطرَ الأخيرَ مِنْها أَلْفاظُهُ كُلُّها دُعاءٌ.

قال الإمامُ الغزاليُّ: «إنّ من القضاءِ ردَّ البلاءِ بالدُّعاء: فَهُو سبَبُ رَدِّ البلاءِ واسْتجلابِ الرَّحْمة؛ كما أنَّ التُّرْسَ سببٌ لردِّ السِّهام، والماءَ سببٌ لخروجِ النَّباتِ من الأرضِ..... وليْس منْ شرْطِ الاعترافِ بقضاءِ اللَّهِ ألاَّ يُحْمَلَ السلاحُ؛ وقد قال تعالى: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾[1]. انتهى النّص. وقال الإمام

(1) سورة النساء. الآية: 71.

الشَّوْكاني: «إنّ الدعاءَ مِنْ قدرِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ! فقد يَقْضِي بشيءٍ على عبْدِهِ قضاءً مُقيَّداً؛ بأنْ لا يدعوه، فإذا دعاهُ انْدَفَعَ بِهِ» انتهى النَّص. وقد حثَّ اللَّهُ عبادَهُ - في كتابهِ العزيز - على الدعاءِ؛ فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[1] وقال: ﴿أدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[2] وقال: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾[3]. وقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[4].

وقد وردتْ أحاديثُ كثيرةٌ وصحيحةٌ في الموضوع؛ منها قوله عليه الصلاة والسلام!: «الدُّعاء سلاَحُ الْمُؤْمِنِ، وعِمَادُ الدِّينِ، وَنُورُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ».

ومنها قولُهُ عليه الصلاة والسلام: «الدُّعَاءُ هُوَ

---

(1) سورة البقرة. الآية: 186.

(2) سورة الأعراف. الآية: 55.

(3) سورةالنمل. الآية: 62.

(4) سورة غافر. الآية: 60.

الْعِبَادَةُ». رواه أبو يَعْلى عنِ البراءِ بنِ عازِب. وعبادُ الرحمن يدعون ربَّهم في سجودِهِمْ مخافةَ عذابهِ وطَمَعاً في فِرْدوْسِه.

قال الله تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ﴾[1].

ويرى بعضُ العارفين أنّهم يدعونَه خوفاً من القطيعة، وهي ـ عندهم ـ العذابُ الأَكْبَرُ، لأنّ الخوفَ عندهم ثلاثُ مراتبَ الخوفُ، والخَشْيةُ، والهَيْبةُ.

فالخَوْفُ مِنْ شرطِ الإيمان، لأنّ الله تعالى قال: ﴿وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[2]، والخَشيةُ من شرطِ العلم، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[3] والهَيْبةُ مِنْ شرطِ المعرفةِ، لأن الله تعالى قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَه﴾[4].

---

(1) سورة السجدة. الآية: 16.

(2) سورة آل عمران. الآية: 175

(3) سورة فاطر. الآية: 28.

(4) سورة آل عمران. الآيات: 28 ـ 30.

ويقول العارفون بالله: من خاف من شيء هربَ منه، ومَنْ خاف مِنَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ هربَ إليه.

قال معاذُ بن جبَلٍ رضي الله عنه: «إن المؤمنَ لا يَطمئِنّ قلبُهُ ولا تَسْكُنُ رَوْعتُهُ حتَّى يُخلِّفَ جِسْرَ جَهَنم وَرَاءَهُ».

وقالت أمُّ المؤمنين عائشةُ رضي الله عنها: «قلتُ يَا رسولَ اللَّهِ! الّذين يُؤتُونَ ما آتوا وقُلوبُهُمْ وَجِلةٌ أهُمُ الذين يَسرِقون ويَزْنُون وَيَشرَبون الخمْرَ؟ قال: «لاَ، يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ؛ ولَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَيَخافُونَ ألاَّ يُقْبَلَ مِنهُمْ؛ أُولَئِك يُسَارِعُون فِي الْخَيْرَاتِ، وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ» وقد علَّم اللَّهُ عبادَهُ كيْفَ يدعونه؛ فقال: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخطَأْنَا ربَّنَا ولا تَحمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا، رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ، واعْفُ عَنَّا واغْفِرْ لَنَا وارْحَمْنَا، أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[1].

---

(1) سورة البقرة، الآية: 286.

وأخبرنا عزّ وجلّ بدعوات رُسُلِه عليهم الصلاةُ والسلام وتضرُّعِهم؛ فقال: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنَ ضُرٍّ، وآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾[1].

وقال حكايةً عن زكريّا (ع): ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[1].

وقال عن يوسُفَ (ع): ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيث،فاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ، تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[2].

(1) سورة الأنبياء. الآيات: 83، 84 ـ 89.
(2) سورة يوسف. الآية: 101.

وقد دعا نبيُّنا عليه الصلاةُ والسلام في مواقفَ كثيرةٍ من حياته فهذا ما يتعلّق بـ«الصفة الخامس»؛ وهي المُشارُ إليها بقولهِ تعالى: ﴿والَّذِينَ يَقُولُونَ ربَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً. إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾ و«غَرَاماً» ـ في الآية الكريمة ـ معناه ملازِمٌ كملازمةِ الغريم لغريمه. أي: كملازمة الدائنِ لِلْمَدْيون؛ حيثُ لا يفارقُه بإلْحاحِه عليه ومُطالبتِه إيَّاهُ بأداءِ ما اسْتَدانَه حَتَّى يُؤَدِّيَهُ حَقَّهُ.

ولفظةُ «غريم» تُطلقُ على الدائنِ والْمَدْيونِ معاً.

قال كُثَير عَزَّةُ:

قَضَى كُلُّ ذِي دَيْنٍ فَوَفَّى غَرِيمَهُ
وَعَزَّةُ مَمْطُولٌ مُعَنًّى غَرِيمُهَا

الصّفةُ السادسة

اعتدالُهم في الإنْفاق، وذلك يظهرُ في اجتنابهمُ الإسراف والتقتيرَ معاً.

وهو القَصْدُ والوسَطُ المطلوبُ في كلِّ شيء. و«خيرُ الأمورِ أوساطُها». والإسْرافُ: هو مُجاوزة

الحدِّ في الإنفاق، وهو المعبَّرُ عنه بالتّبذير أيضاً، وصاحبُه يسمّى مبذِّراً.

والتَّقتيرُ: هو المبالغةُ في الإمساك، والتَضْيِيقُ على العيال، وهو المعبَّرُ عنه بالشُّحِّ والبُخل، وصاحبُه يُسَمَّى شحيحاً وبخيلاً.

وقد أمر اللَّهُ رسولَه عليه الصلاةُ والسلام! بالاعتدالِ في الإنفاقِ؛ حيث قال: ﴿ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾[1]. قال أبو بكر ٱبنُ العربيّ في «أحكامِ القرآن»:

المسألةُ الأولى: قولُه: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ﴾[1]. هذا مجازٌ، عبّرَ به عن البخيل الذي لا يقدِرُ - من قلبه - على إِخراجِ شيْءٍ من ماله؛ فضَربَ له مثلاً بِالغُلِّ الذي يمنَعُ من تصرُّفِ اليدَيْنِ.

وقد ضَرَبَ له النَّبِيُّ ﷺ مثلاً آخر؛ فقال: «مَثَلُ

(1) سورة الإسراء. الآية: 29.

الْبَخِيلِ وَالْمُتَصَدِّقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِ جُبَّتَانِ مِنْ حديدٍ، مِنْ ثَدْيِهِمَا إِلى تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَا الْمُنْفِقُ فَلاَ يُنْفِقُ إِلاَّ سَبَغَتْ وَوَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ، وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلاَ يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئاً إِلاَّ لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَها، فَهُوَ يُوَسِّعُهَا فَلا تَتَّسِعُ»[1].

المسألة الثانيةُ: قولُه: ﴿وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ ضَرَبَ بَسطَ الْيدِ مثلاً لذهابِ المالِ، فإنَّ قَبْضَ الكفِّ يُحبِسُ ما فيها، وبسْطَها يُذهِب ما فيها، ومنه المثَلُ المضروبُ في سورةِ «الرَّعْد»: ﴿إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾[2] في أحدِ وجْهَيْ تأويلِه، كأنّه حملَهُ على التوسُّط في المنعِ والرَّفْع؛ كما قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لم يُسْرِفوا ولَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾[3] فَيَؤُولُ مَعْنى الكلامِ إِلى أوجُهٍ ثلاثةٍ:

(1) رواه البخاري ومسلم وغيرهما، عن أبي هريرة.

(2) سورة الرعد. الآية: 14.

(3) سورة الفرقان. الآية: 67.

الأولُ: لا يَمْتَنِعُ عن نفقَتِهِ في الخير، ولا يُنفِقُ في الشرّ.

الثاني: لا يَمنَعُ حقَّ اللَّهِ، ولا يتجاوَزُ الواجِبَ، لَئَلاً يأتِيَ مَنْ يَسْأَلُ فلا يجدُ عَطاءً.

الثالثُ: لا تُمسِكْ كلَّ مالِكَ، ولا تُعْطِ جميعَه، فتبْقَ ملوماً في جِهاتِ المنع الثّلاث، محسوراً؛ أي: مُنْكشِفاً في جهةِ البسْطِ والعطاءِ لِلْكلِّ أو لسائرِ وجوهِ العطاء المذمومة» انتهى النص.

وخلاصةُ القولِ أنَّ الإنْفاقَ في الخير ليس بإسْرافٍ؛ ولو كان أكثرَ من كثيرٍ، وأنَّ الإنفاقَ في الشرِّ هو إسرافٌ؛ ولو كان أقلَّ من قليلٍ.

والواجب منه يحجُبُ المستحبَّ والمستحبُّ يحجُبُ المباح.

«وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»[1] والإنفاقُ يتفاوَتُ بِتفاوُتِ مقاماتِ المُنفقين؛

(1) رواه مسلم وغيره، عن أبي هريرة.

فمقامُ أبى بَكرِ الصّدِّيقِ رضي اللَّهُ عنه! قد دفعَ به أنْ يَخْرُجَ مِنْ جميع مالِهِ، فقال له النبيُّ عليه الصلاةُ والسلام: «مَا الَّذي أَبْقَيْتَ لِعِيَالِكَ»؟ قال: «أَبقيتُ لهمُ اللَّهَ ورسولَهُ».

ومقامُ عمرَ بْنِ الخطَّابِ رضي اللَّهُ عنه! قد دفع به أن يُقَدِّمَ نِصفَ مَالِهِ، ويُبقِيَ النِّصفَ لهُ ولعياله.

ومقامُ عثمانَ بنِ عفَّانَ رضي اللَّهُ عنه! قد دفع به أن يكونَ الإنفاقُ أحبَّ إليهِ مِنَ الإمساك؛ فقد كان الخَرْجُ في طاعةِ الله ورسوله أحبَّ إليه من الدَّخْل.

ومقامُ عليِّ بنِ أبى طالِبِ رضي اللَّهُ عنه! قد دفع بِهِ أن ينبِذَ الدُّنيا كُلَّها وَرَاءَ ظهِرِه، ولا يَكْتَرِثَ بها؛ ولو عَرَضَتْ له نفسَها.

كيف لا؟ وهو القائلُ لخِزانة المال: «يا صفْراءُ ويا بيضاءُ! غُرِي غيري»!

وقد أشار الرسولُ عليه الصلاةُ والسلام! على كَعْبٍ وأبى لُبابةَ أن يُقدِّمَا الثُّلُث ـ فقطْ ـ من مالِهِما، وذلك

حسْبَ مقام كلٍّ منهما ورتبتِهِ وحالهِ. «وكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»[1].

وعبادُ الرحمن يَكسِبون عيشَهُم بالوسائلِ المشروعة، ويُنفقون على أنفسِهِم وعيالهم من كَسْبِ أيدِيهم، وينصَحُون مَنْ يريدُ النصحَ بقولهم: «اجْعَلِ المالَ في يَدِكِ، ولا تجعلْهُ في قلبِك لأَنَّكَ مستَخلَفٌ من اللَّهِ فيه، ولستَ مالِكاً له».

وهذا مِصداقٌ لِقَوْلِه تعالى: ﴿ءَامِنُوا باللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ، فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[2].

فهذا ما يتعلَّقُ بالصفةِ السادسةِ لعباد الرحمن، وهي المشارُ إليْها بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَواماً﴾[3].

---

(1) رواه البخاري ومسلم وغيرهما، عن عمران بن حُصَين. ورواه الترمذي، عن عمر بن الخطاب ورواه الإمام أحمد، عن أبى بكر الصديق.

(2) سورة الحديد. الآية: 7.

(3) سورة الفرقان. الآية: 67.

الصّفة السابعة

ٱختِرازُهُم منَ الشّرْك ظاهراً وباطناً، وإخْلاصُهُم للَّهِ وحْدَهُ نِيَّةً وقولاً وفعلاً؛ فمعبودُهم اللَّهُ وحده لا شرِيكَ لَهُ كمالاً وتنزيهاً.

فهُم يَحْتَرِزون من إشْراكِهِم غيرَ اللَّهِ الْوَاحِد بالنسبةِ إلى عبادتِهِم إيَّاهُ؛ كما يحترزون من إشراكِهِم غيرَ اللَّهِ الْواحِدِ بالنِّسبةِ إلى كَمَالِ ذاتِه وصفاتِهِ وأَفْعَالِهِ.

الصّفةُ الثّامنة

إخْتِرازُهم من قتلِ النَّفسِ التي حرَّمَ اللَّهُ قتلَها إلاّ بالحقّ.

فعبادُ الرّحمنِ أعِفَّاءُ عنِ الدّماءِ فهم لا يُفكّرون في قتلِ النفوس، ولا يباشرون ذلك؛ إلاّ بحقٍّ شرعي: كجهادٍ في سبيل الله، أو حدٍّ من حُدوده؛ بل هم يرهَبون من عقابِ قتلِ النُّفوسِ ظُلْماً؛ كما يرغَبون في ثوابِ إحيائِها رحْمةً وعدلاً، امتثالاً لما جاء في القرآن الكريم من آياتِ الترهيبِ والترغيب؛ مثلَ قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي

إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾.

الصفةُ التّاسعةُ

اخْترازُهم من الزّنا، فعبادُ الرحمنِ أعفاءُ عن الفُجور، امْتِثالاً لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى،إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[1].

وقد نهى اللّهُ عن قُرْبِ الزِّنَا مُبالغةً في النّهْيِ عن مُباشرتِه بالفِعْلِ، والمرادُ بذلك كلُّ مقدِّمةٍ تُؤدِّي إلى فِعْلِه: مثْلَ المغازلةِ والنّظرِ بلذَّة، وهلُمَّ جرّاً... وقد أمر اللّهُ المُؤمنين أنْ يغُضُّوا من أبصارِهم ويحفظوا فروجَهُم؛ كما أمر المؤمناتِ بذلك؛ فقال: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُم،ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ،إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ. وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ

(1) سورة الإسراء. الآية: 32.

زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾[1].

وقال مَنْ لا ينطقُ عنِ الهوى عليه الصلاةُ والسلام: «زِنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظَرُ»[2].

وفي آيةِ «الإسراءِ» ـ المتقدمةِ الذكرِ ـ دليلٌ قاطعٌ على أنَّ الزّنا قبيحٌ في العقولِ، مُستَنكَرٌ في العاداتِ قبلَ وُرودِ تحريمِه في الشّرائع السماويّة.

والدليلُ على ذلك أنَّ اللّهَ قد سمّاهُ ـ في كتابِه ـ «فَاحِشَةً» بصيغةٍ خبريّة، وأَطْلقَ فُحشَهُ، ولم يُقيِّدْهُ بحالٍ أو زمانٍ أو مكان.

ويكفي الزّنا قُبحاً أنَّ فيه غَصْباً للأبضاع، واخْتِلالاً للأنساب، وهَيَجانا لِلْفِتَنِ!

ويَكْفِي الزّناةَ زَجْراً قولُه عليه الصلاةُ والسلام!: «إِذَا زَنَى الْعَبْدُ خَرَجَ مِنْهُ الْإِيمَانُ؛ فَكَانَ عَلَى رَأْسِهِ

(1) سورة النور. الآية: 30، 31.

(2) رواه الطبراني وابن سعد، عن علقمةَ بن الحُوَيْرِث.

كَالظُّلَّةِ؛ فَإِذَا أَقْلَعَ رَجَعَ إِلَيْهِ»[1]. رواه الحاكمُ وغيرُه عن أبي هريرة.

وكيف يطلُبُ الرّجلُ العِفَّةَ من زوجَتِهِ وهو غيرُ عَفِيفٍ؟ قال عليه الصلاةُ والسلام: «مَنْ زَنَى زُنِيَ بِهِ؛ وَلَوْ بِحِيطَانِ دَارِهِ»[2] وقال أيضاً «عِفُّواً عَنْ نِسَاءِ النَّاسِ تَعِفَّ نِسَاؤُكُمْ»[3] وما أحْسنَ قولَ الشاعرِ التّقيِّ في النَّهْيِ عنِ الزِّنا:

عِفُّواً تَعِفَّ نِسَاؤُكُمْ فِي الْمَحْرَمِ
وَتَجَنَّبُوا مَا لاَ يَلِيقُ بِمُسْلِمِ

إِنَّ الزِّنَا دَيْنٌ فَإِنْ أَقْرَضْتَهُ
كَانَ الْوَفَا مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ فَاعْلَمِ

مَنْ يَزْنِ يُزْنَ بِهِ وَلَوْ بِجِدَارِهِ
إِنْ كُنْتَ يَا هَذَا لَبِيباً فَافْهَمِ

---

(1) رواه الحاكم وغيره، عن أبي هريرة.
(2) رواه الديلميّ وابن النّجّار، عن أنس بن مالك.
(3) رواه الحاكم، عن أبي هريرة.

يَا هَاتِكاً حَرَمَ الرِّجَالِ وَقَاطِعاً
سُبُلَ الْمَوَدَّةِ عِشْتَ غَيْرَ مُكَرَّمِ
لَوْ كُنْتَ حُرّاً مِنْ سُلاَلَةِ طَاهِرٍ
مَا كُنْتَ هَتَّاكاً لِحُرْمَةِ مُسْلِمِ

الصّفةُ العاشرةُ

صِدْقُ تَوْبَتِهِمْ النَّصوح. وقد جاء القرآنُ الكريمُ بثلاثةِ معانٍ للتّوبة.

المعنى الأوَّلُ: التجاوز، مثلَ قولِهِ تعالى: **﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ،إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾**[1].

المعنى الثّاني: الرُّجوعُ عنِ الشّيءِ؛ مِثْلَ قولِهِ تعالى - في قصَّةِ موسى (ع) -! **﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: سُبْحَانَكَ! تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾**[2].

المَعْنَى الثالثُ: النَّدَمُ على الذنبِ مثْلَ قولِهِ تعالى:

---

(1) سورة البقرة. الآية: 37.

(2) سورة الأعراف. الآية: 143.

﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾[1].

والمعنى الإجماليُّ للتَّوبةِ هو الرجوعُ إلى اللَّهِ تعالى وهي واجبةٌ على كلِّ مكلَّفٍ في كُلِّ نَفس.

قال جلَّ وعَلاَ: **﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾**[2]. وقال عليه الصلاةُ والسلام: «وَاللَّهِ!إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ من سَبْعِينَ مَرَّةً»[3].

وقال ـ أيضاً ـ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! تُوبُوا إِلَى اللَّهِ واسْتَغْفِروهُ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ مَائَةَ مَرَّةٍ»[4].

وذِكْرُ «المائةِ» هُنا و«السَّبعين» قبلَهُ عِبارةٌ عن الكثْرةِ؛ لا للتّحديدِ ولا للغاية.

ويدلُّ على ذلك قولُه تعالى: **﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْلاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ**

---

(1) سورة التحريم. الآية: 8.

(2) سورة النور. الآية: 31.

(3) رواه البخاريّ، عن أبي هريرة.

(4) رواه مسلم، عن الأغرّ بن يسار المُزَنيّ.

لَهُمْ،ذَلِكَ بأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ،واللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

فالمغفرةُ مستحيلةٌ بعدَ المُبالغةِ في الاسْتِغفار؛ بلْ لن يغفرَ اللَّهُ لهم ولو ٱستغفرَ لهمُ الرسول عليه الصلاةُ والسلام! مُدَّةَ حياتِهِ الكريمة، لأنهم قد كفرُوا باللَّهِ ورسوله. وبناءً على ضَوْءِ ما تقدَّمَ فإنّه عليه الصلاةُ والسلام! تائبٌ دائماً وأبداً.

وتَوْبتُهُ المستمرّةُ ليستْ عنْ ذنبٍ مقترَفٍ، بلْ لِكَونِهِ عليه الصلاةُ والسلام! دائماً في الصعودِ والترقّي، فكلُّ مرتبةٍ ارْتقى إلَيْهَا فما دونَها يُعتَبَرُ ذَنْباً يَستغْفِرُ منه.. قال بعضُ العارفين بالله: «ذنبُ كلِّ عبدٍ بحَسَبِه، لأنَّ أصْلَ معْنى الذنب أدْنَى مقامِ العبدِ، وكلُّ ذِي مقامٍ أعلاَهُ أحْسَنُهُ، وأَدْناهُ ذنبُه، ولذَلك عندهمَ في كلِّ مقامَ تَوْبةٌ؛ حتّى ترتفِعَ التّوبةُ عنِ التّوبة، ويَكْمُلَ الوجودُ والشهود». انتهى النّصّ. وللتوبةِ شروطٌ، وآدابٌ وبواعثُ، ومراتبُ.

---

(1) سورة التّوبة الآية: 80.

فأمّا شروطُهما فَثلاثةٌ.

الشَّرطُ الأوَّل: النَّدمُ على الذَّنبِ المقتَرَفِ؛ من حيثُ ارتِكَابُهُ، وعصيانُ المُذْنِبِ ذا الْجَلالِ والإكرام به؛ لا منْ حيثُ إضرارُهُ بمَالِهِ أو جَسَدِه.

الشرطُ الثاني: الإقلاعُ عن الذَّنبِ فَوراً من غيرِ تراخٍ ولا توانٍ؛ مهما أَمْكن الإقلاعُ.

الشرطُ الثالثُ: العَزْمُ على أن لا يعودَ المُذْنبُ إلى ذنبِهِ ما دامَ حيّاً يُرزَقُ؛ وإذا قضَى اللَّهُ عَلَيْهِ بالعَوْدةِ إليهِ وجبَ عليه أن يُجدِّدَ عزماً آخر.

وأما آدابها فلاثةٌ.

الأدبُ الأوّل: الاعترافُ بالذنوبِ بين يَدَيِ علاَّمِ الغيوب في حالةٍ يغمُرُها الانكسارُ والخضوعُ لغافرِ الذَّنبِ وقابل التّوْبِ من عبادِه.

الأدبُ الثاني: الإكثارُ مِنَ الاسْتِغفارِ للّهِ الواحدِ القهَّار.

الأدبُ الثالث: الإكثارُ مِنَ الإتيانِ بالحسناتِ مهما استطاع التائبُ إلى ذلك سبيلاً، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ

الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ، ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾[1].

ولِقَوْلِهِ عليه الصلاةُ والسلام «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[2].

وأما: بواعثُها فسَبْعةٌ: خوفُ عقابِ الله ورجاءُ ثوابِهِ، والخَجَلُ منهُ يومَ الحساب، ومحبتُه، ومراقبتُه ـ وهو الرقيبُ القريبُ وتعظيمُ مقامِه، وشُكرُ إنعامِه.

وأمّا مراتِبُها فسبعةٌ: توبةُ الكفّارِ من الإِشْراكِ بالله أو الإِلْحادِ في دينه، وتوبةُ المُخْطئين من كبائرِ الذنوب، وتوبةُ العدولِ من صغائرِ الذنوب، وتوبةُ السالكين من أمراضِ القلوبِ وعِلَلِهَا وآفاتِ الضَّمائرِ وَمُفْسِدَاتِهَا، وتوبةُ العابدينَ مِنَ الفَتَرات، وتَوبةُ الوَرِعينَ مِنَ الشُّبُهَاتِ، وتوبةُ الخواصِّ مِنَ غَفَلاَتِ القلوبِ عن اللَّهِ المحبوب.

ومما تقدّم يتضح لنا ـ جليّاً ـ أنَّ توبةَ عوامِّ

(1) سورة هود. الآية: 114.

(2) رواه الترمذيّ، عن أبي ذرّ الغِفاري ومعاذ بن جبل.

المسلمين ليستْ مثْلَ توبةِ خواصِّهم. قال: ذُو النُّونِ المصريُّ ـ رحِمهُ الله ـ: «التوبةُ أن تتوبَ من كلِّ شيءٍ سوى اللّهِ تعالى وقال ـ أيضاً ـ: «ذُنُوبُ المُقَرَّبِينَ حَسَنَاتُ ٱلْأَبْرَارِ» وتوبةُ الخواصِّ هي توبةُ عبادِ الرحمن، وتوبةُ خَواصِّ الْخَواصِّ هيَ توبة الأنبياءِ والمُرسلين؛ عليهِمُ الصلاةُ والسلام!

والتوبةُ ـ على وجهِ العموم ـ تَقْتَضِي الوَرَعَ، والورعُ يقتضي الزهدَ، والزُّهْدُ يقتضي معانقَةَ الفقرِ واخْتيارَهُ. والفقرُ يقتضي مقامَ الصّبرِ. والصبرُ يقتضي التوكُّلَ على الله. والتوكلُ يقتضي الرِّضا بقضاء اللّهِ وقَدَرِهِ.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا،فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ،أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً،إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

فهذَا ما يتعَلَّقُ بـ«الصِّفةِ العاشرةِ» لعباد الرحمن، وهي المُشارُ إِلَيْها مَعَ الثّلاثِ قَبلَها بقولِه تعالى:

(1) سورة البقرة. الآية: 148.

﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً ءَاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً. يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً. إِلاَّ مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً. وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً﴾[1].

فقدْ بَيَّن اللَّهُ ـ تعالى! في هذه الآياتِ الكريمةِ ـ أنَّ مِن صفاتِ عبادِ الرحمنِ احترازُهم من الشّركِ، والقَتْلِ، والزّنا. ثمّ أوضحَ اللَّهُ ـ سبحانه! ـ حُكمَ مَنْ يَفعلُ هذه الكبائر؛ فيُعاقبُه بمضاعفةِ العذابِ في الدنيا والآخرة. ثمّ استثنى المُؤمنينَ التَّائِبين، المُتقَرِّبين إليهِ بأعمالِهِمُ الصالحات فبَدلَ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَناتٍ. وهو الغفورُ الرّحيم.

وممّا جاءَ في سببِ نُزولِ الآياتِ المذكورةِ أعْلاهُ أنَّ عبدَ اللَّهِ بْنَ عباسٍ قال: «أتى وَحْشِيٌّ إلى النَّبيّ

(1) سورة الفرقان. الآية: 68، 69، 70، 71.

ﷺ فقال: يا محمّدُ! أتيتُكَ مُسْتَجِيراً، فأجِرْنِي حتَّى أسمعَ كلاَمَ اللَّه، فقال رسولُ الله ﷺ: «قَدْ كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ أرَاكَ عَلَى غَيْرِ جَوارٍ؛ فَأَمَّا إِذْ أَتَيْتَنِي مُسْتَجِيراً فأنْتَ فِي جِوَارِي حَتَّى تَسْمعَ كَلاَمَ اللَّهِ».

قال وحْشِيُّ: فإِنّي أشْركتُ باللَّهِ، وقتلتُ النَّفسَ الَّتي حرّمَ اللَّهُ تعالى، وزَنَيْتُ، هلْ يَقبَلُ اللَّهُ مِنّي توبةً؟ فصَمَتَ رسولُ اللَّهِ ﷺ! حتّى نزل: **﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ إِلَهاً آخَرَ. وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ﴾** إلى آخر الآيات. فتلاها عليه، فقال: أرى شرْطاً، فلَعلّي لا أعمَلُ صالحاً، أنا في جِوارِكَ حتّى أسْمَعَ كلامَ الله. فنزلتْ: **﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾**[1]، فدعا به، فتلاها عليه، فقال: ولَعَلّي مِمَّنْ لا يَشاءُ، أنا في جوارِكَ حتّى أسمَعَ كلام اللَّه، فنزلتْ: **﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ،إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً،إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ**

---

(1) سورة النّساء. الآية: 48 - 116.

الـرَّحِـيــمُ﴾[1]. فـقـال وخـشِـيَ الآنَ لا أرى شَـرْطـاً، فأَسْلَمَ.

الصِفةُ الحاديةَ عشرةَ

اجْتنابُهُـمْ قَوْلَ الزُّورِ كيْفَمَا كانَ، وحَيْثُما بَان، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾[2]. ولقوله عليه الصلاةُ والسلام: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟»

قُلنا: بلى، يا رسولَ الله! قال:

«الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ».

وكان مُتَّكِئاً فجَلَسَ؛ فقال:

«أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ!»،

فما زَالَ يُكَرِّرُها حتَّى قُلْنا: ليتَهُ سَكَتَ﴾[3].

ومعنى الزّورِ: هو الْكَذِبُ بجميع أنواعِه. وأصلُ

---

(1) سورة الزمر. الآية: 53.

(2) سورة الحج. الآية: 30.

(3) رواه أبو بكرة، والحديث متفق عليه.

معناهُ ازْورارُ القول وانْحِرافُهُ عنِ الواقعِ. ومُتعلّقاتُ الزّورِ تَتَفاوَتُ بحَسَبِ كثرةِ ضرَرِهِ وقِلّتِه. وأعْظَمُ ضرَراً وعُقوبةً الكَذِبُ على اللَّهِ والرسول. واحترازُ عبادِ الرحمنِ مِنَ قولِ الزّورِ يشمَلُ أمرينِ اثْنَين:

الأَمْرُ الأوّلُ: الابْتعادُ عن مجالِس الكَذِبِ والبُهتاتِ والكلامِ الباطل وعدمُ حضورِها.

وقد جاءتْ آياتٌ كثيرةٌ في هذا المعنى؛ منها قولُه تعالى: **﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا ويُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾**[1]. ومنها قولُه تعالى: **﴿وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾**[2].

وبناءً عَلَى ما تقدّم يتَّضِحُ لنا ـ جليّاً ـ أنّ اجتاماعَ المسلمين بأهلِ الكتاب أو بالملحدين واسْتِماعَهُم لحوارِهِم في العقائد يُعَدُّ زوراً وبهتاناً، ومثل ذلك

---

(1) سورة النساء. الآية: 140.

(2) سورة هود. الآية: 413

الاجتماع والحوار مع الشيوعيين في العصرِ الحاضرِ شرقاً وغرباً. لأنّ الرضى بهذا الاجتماع وذلك الحوار كل منهما يُعَتبرُ إقراراً لهم بعقائدهم الفاسدة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلام﴾[1]. وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنه﴾[1].

الأمرُ الثاني: الابْتَعادُ عنْ تصويرِ الباطلِ بصورةِ الحَقِّ في طريقِ الحُكْم وهو المُعبَّرُ عنه ـ عُرْفاً ـ بـ«شَهَادَةِ الزُّورِ»؛ والعِياذُ باللَّهِ منها ومِنْ أهلِها! وقد نقلَ الجَصّاصُ ـ في «أحكامِ القرآنِ» عنِ مُحَمّدِ بْنِ الحَنَفِيَّة ـ أنَّ معنى قوله تعالى: ﴿لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ داخلٌ في الآية: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ،إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولا﴾[2].

---

(1) سورة آل عمران. الآيات: 19 ـ 85.

(2) سورة الإسراء. الآية: 36.

الصِفةُ الثانيةَ عشْرَة

إعْرَاضُهُم عنِ اللَّغوِ قَوْلاً وعَمَلاً؛ وإذا صادفهم كرَّمُوا أنفُسَهُم بعدمِ الالْتفاتِ إليهِ، وصانوهَا مِنَ الاكْتراثِ به، ونَزَّهوها عنِ الْخوضِ فيه. واللَّغْوُ ـ في كلام العرب ـ: هو ما لا فائدةَ فيه من قولٍ أو فعل. قال أبو بكر ابنُ العربيِّ في «أحكام القرآن» ـ عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾ ـ: «يعني الذي لا فائدةَ فيه تَكَرَّمُوا عنه؛ حتَّى قال قومٌ من أهلِ التفسير: إنّهُ ذِكْرُ الرَّفَثِ ويكونُ لغواً مجرَّداً إذا كان في الحلالِ، ويكونُ زُوراً محرَّماً إذا كان في الحرام، وإذِ احْتاجَ أحدٌ إلى ذكرِ الفَرْجِ أو النِّكاحِ لأمرٍ يتعلّقُ بالدِّينِ جاز ذلك...». انتهى النّص. ومدلولُ اللَّغْوِ ـ عندَ الصوفيّةِ ـ ينصرِفُ إلى الدنيا بما فيها وما عليها، وهم مأمُورون بالمرورِ عليها كِراماً، غيرَ مكترثين، ولا متأسّفين، فلا تَشْغَلُهم ـ مهما أقْبلتْ عَلَيْهِم بزخارفها وخيراتها عمّا خُلقوا لأجله: من معرفةِ اللَّهِ وطاعته.

ويَسْتَدِلُّونَ على أنّها لَغْوٌ بقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[1]. وبقوله عليه الصلاةُ والسلام: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ: النِّسَاءُ، والطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ»[2]. فقدِ اسْتنبط الصُّوفيّةُ من هذا الحديثِ أنَّ النّبيَّ عليه الصلاةُ والسلام! أضافَ «الدُّنيا» إلينا، ولم يُضِفْها إلى نَفْسِه، وهذه إشارةٌ كافيةٌ لِنَتَجَنَّبَ فِتَنَها، ونزهَدَ فيها؛ مثلْما زهِدَ فيها سلَفُ الأمّةِ المحمّديّة، فقد ملكوها واحْتقروها، وجعلوها في أيديِهِم، وأفرغوا منها قلوبَهم، واعتبروها لَغْواً، فمرّوا عليها كِراماً؛ حتَّى قال شاعِرُهُم:

إنَّ لِلَّهِ عِبَاداً فُطَنَا
طَلَّقُوا الدّنْيا وَخَافُوا الْفِتَنَا

نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا
أنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَنَا

---

(1) سورة الأنعام. الآية: 32.

(2) رواه الحاكم والنسائي وغيرهما، عن أنس بن مالك.

جَعَلُواهَا لُجَّةً واتَّخَذُوا
صَالِحَ الأَعْمَالِ فِيهَا سُفُنَا

فهذا ما يتعلَّقُ بـ«الصفةِ الثّانيةَ عشْرةَ» لعباد الرحمن، وهيَ المُشارُ إليها وإلى التي قبلها بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرّو كِرَاماً﴾.

الصِفةُ الثالثة عشرة

تدبُّرُهُم فِي مَعَانِي القرآنِ الكريم، وتَفَهُّمُهُمْ لآياتِهِ المُحْكَمَاتِ؛ وذلك عندما يُذَكِّرُهم بهِ الذّاكرون أو يَعِظُهُم به الواعِظون فَيُكِبُّونَ عليه سامعين لمواعظِه، مُبْصِرين لأحكامه، خاشعين به لله العليِّ القدير، عمَلاً بقولهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً، وسبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[1].

وعبادُ الرحمنِ يتأثَّرون بالقرآنِ الكريمِ على قدْرِ خَشْيَتِهِمْ لله تعالى ومحبَّتِهِمْ له.

---

(1) سورة السجدة. الآية: 15.

فهُمُ الذين تقْشَعرُ جلُودُهم من ذكرِ الله، وتَلينُ قُلُوبُهم إلى كلامِهِ العزيز، ويَهْتَدُونَ بهُداهُ السَّرْمديِّ. قال عزَّ مِن قائل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ،ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ،وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[1].

وعبادُ الرحمنِ هُمُ الذين تخشَعُ قُلوبُهُمْ عند تِلاوةِ آياتِ اللَّهِ، فيَزْدادون إيماناً مع إيمانِهِمْ وعلى اللَّهِ يتوكَّلُونَ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ. قال جَلَّ وعَلاَ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ، وإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً، وعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[2].

فالمسلم الحقُّ هو الّذي يَتأَثَّرُ بِكِتاب اللَّهِ، ويتذوَّقُ حلاوةَ أَلْفاظه، ويخشَعُ لِتِلاوَتِهِ بقلْبِه وقالَبِه.

قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ

---

(1) سورة الزمر. الآية: 23.

(2) سورة الأنفال. الآية: 2.

لَرَأَيْتَهُ خَاشِعَاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ،وَتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

وعن البَرَاءِ بْنِ عازِب قال: «كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورةَ الْكَهْفِ، وعِندهُ فَرَسٌ مَرْبُوطٌ بِشَطَنَيْنِ (أيْ حَبْلَيْنِ)، فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ (أي: عَلَتْهُ)، فَجَعَلَتْ تَدْنُو، وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ مِنْهَا؛ فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: «تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ لِلْقُرْآنِ»[2]. وقد كان عليه الصلاةُ والسلام يَرْفَضُّ عَرَقاً عند نزولِ الوَحيِ عليه، وما ذلك إلاَّ مِن عَظَمَةِ القرآن وقَداستِه.

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «شَيَّبَتْنِي «هُودٌ» وَأَخَوَاتُهَا»[3]. هذا ما يتعلّقُ بـ«الصِّفةِ الثالثةَ عشْرَةَ»؛ وهي المُشارُ إليها بقوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾**.

جاء في تفسيرِ أبى السعود: «أي: أكبّوا عليها

---

(1) سورة الحشر. الآية: 21.

(2) رواه البراء بن عازب، والحديث متفق عليه.

(3) رواه الطبراني، عن عقبة بن عامر، وعن أبى جحفة أيضاً.

سامعين بآذانٍ واعِيةٍ، مُجْتَلين لها بِعيونٍ راعية. وإنَّما عبَّرَ عن ذلك بنَفْيِ الضّدِّ، تعريضاً بما يفعلُه الكَفَرَةُ والمنافِقون». انتهى النَّصُّ. وممّا يجدُرُ الانْتباهُ إِلَيْهِ أنّ الآيَةَ المذكورة أعْلاهُ تسمَحُ لنا أنْ نَسْتَنبِطَ منها أمْرَيْنِ اثنَيْن.

أوّلُهما: أنَّ عبادَ الرحمنِ هُمْ في حاجةٍ إلى التَّذكيرِ بكتابِ اللَّه، لأنَّهم محلٌّ للخطأ والنِّسيان؛ كَغَيْرِهِمْ مِنَ المؤمنين.

ثانيهما: أنّ حِفْظَ القرآنِ ليسَ شرْطاً فيمن كتَبَ اللَّهُ له أنْ ينخَرِطَ في سِلْكِ عِبادِ الرّحمن، ولذلك كان جلُّ الصّحابةِ ليْسُوا من حَفَظَةِ القرآن؛ وإنّما يُشْتَرَطُ في المُنْخَرِطِ في سِلْكِهِمْ أنْ يكونَ مِنَ المُسْتَمعين لتلاوةِ اللَّهِ بتَفَهُّم وتَدَبّر. ولِلَّهِ فِي خلْقِهِ شُؤُون واللَّهُ أعلَمُ بالمُتَّقين.

الصِّفَةُ الرَّابِعةَ عَشْرَةَ

شعورُهُمْ بالْمَسْؤوليّةِ عن حلائِلِهِمْ وأولادهِم أمامَ اللَّهِ تعالى والمُجْتَمَع المسلم، فتضرَّعوا إلى اللَّهِ

المعبودِ، ليجعلَ لهُم مِنْ رَعيَّتِهِم وقراباتهم مُؤمِنين صالحين، لا يَعصونهم في أمرٍ، ولا يخافون في اللَّهِ لومةَ لائم؛ حتَّى تَبْرُدَ عيونُ عبادِ الرحمنِ سروراً، وتمتلىءَ قلوبُهم غِبْطةً بما تحقّق من مخَايِلِ النَّجابةِ، ودَلائل الخيرِ في حلائِلِهم وأولادِهِم الذين هم محلُّ طموحِهِم في الدّنيا، وادِّخارُ أجْرِهِم في الآخرة، فيَعيشون صُحْبتَهُم في الدُّنيا سعداء، وينعمون معهم في الآخرةِ بنعيم الجنّة، الّتي وعد اللَّهُ بها الذين آمنوا وعملوا الصالحات. وتضرُّعُ عبادِ الرحمنِ إلى اللَّهِ - ليَهْدِيَ أزْواجَهُم وأولادَهم كي تَقَرِّبِهِمْ أعيُنُهُمْ - مَبنيٌّ على تخوُّفِهِمْ من عِصْيانِهِمْ أيّاهُمْ وعَدَاوتِهِم لهم.

قال اللَّهُ تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**[1]. وشعورُهُمْ بالمسؤوليّةِ المُبَيَّنَةِ أَعْلاه مَبْعَثُهُ وُجوبُ رِعايتِهِمْ لِأهْلِهِمْ وَوِقايتِهِمْ لهم منْ عذابِ جهنَّم. قال

(1) سورة التغابن. الآية: 14.

الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[1]. وقال عليه الصلاةُ والسلام: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ: فالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلُ راعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا، وَهِيَ مَسْؤُولَةٌ عن رَعِيَّتِها، والْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ، وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ؛ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[2].

الصِفةُ الخامسةَ عشرَة

شعورُهُمْ بأَنَّهم محلُّ اقْتداءٍ لِمَنْ يجيء بعدَهُمْ مِنَ المُتَّقين؛ بعْدَما تَمّ اقْتِداؤُهم هُمْ بمَنْ تقدَّمهم منَ الصّالحين، فتضَرَّعوا إلى اللَّهِ المُجيبِ أنْ يجعلَهُم أئمَّةً لغيرِهِمْ كيْ يسترشِدوا بهِمْ في أمورِ الدنيا، ويهتدُوا بِهِمْ في شؤونِ الدين.

---

(1) سورة التحريم. الآية: 6.

(2) رواه البخاريّ ومسلم وغيرهما، عن عبد الله بن عمر.

وهـذا شـأنُ قـادةِ الـخيـرِ فـي كُـلِّ عـصـرٍ وفـي كُـلِّ مجتمعٍ وفي كُلِّ جيلٍ.

وقـد جـاءَ دُعـاءُ عـبـادِ الـرحـمـنِ عـلـى سَـمْـتِ دعـاءِ إبراهيـمَ الـخلـيـلِ (ع) قـال اللَّـهُ تـعـالـى حِـكـايـةً عـنـهُ: ﴿واجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخرِينَ﴾[1]. فـهـذه سُنَّةٌ حسَنةٌ في المؤمنين؛ كما قال عليه الصلاةُ والسلام: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَـمِـلَ بِـهَـا بَـعْـدَهُ مِـنْ غَـيْـرِ أَنْ يَـنْـقُـصَ مِـنْ أُجُـورِهِـمْ شَيْءٌ»[2].

ولـعلّ دعاءَ إبراهيـمَ الـخليـلِ وتضرُّعَ عبادِ الرحـمن هـمـا اللـذان دفـعـا ببـعـض الـسَّـلَـفِ الـصـالـح أن يـرفَـعـوا أصواتَهُمْ في جوف اللَّيلِ حالةَ تَهجّدِهِمْ؛ حتّى يُوقِظوا بـهـا أهـلَـهُـم وجيـرانَـهـم، لـيُـشـارِكـوهـم فـيـمـا هـم بـهِ متلَذِّذون، وما قَصْدُهـم في ذلك سوى أنَّهـم راغبـون في أنْ يكـونـوا قَـادَةَ خَيْرٍ لِـمَـنْ تَـبِـعَـهُـمُ فِـي طـاعـةِ الله

(1) سورة الشعراء. الآية: 84.

(2) رواه مسلم، عن أبى عمرو جرير بن عبد الله.

وعبادتِه. «واللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أخِيهِ»[1] وَ«لاَ يُؤْمِنُ أَحَدكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[2]؛ كما قال عليه الصلاة والسلام.

وقد جعل اللَّهُ أئِمَةً من بني إسْرائيل؛ وذلك عندما ائْتَمَرُوا بأمره، وصبروا على قضائِه وقدرِه، وأيْقَنوا بآياتِهِ.

ولمّا بدَّلوا وغيَّروا ضَرب عليهِم الذِّلَّةَ والْمَسْكَنَةَ.

قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[3]. وقال: ﴿... وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الذِّلَّةُ والمَسْكَنَةُ وبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ويَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ،ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[4].

وإذا كان هذا مُطَبَّقاً بالنسبةِ إلى بني إسرائيل؛ فإنّه

---

(1) رواه مسلم وغيره، عن أبي هريرة.

(2) رواه البخاري ومسلم وغيرهما، عن أنس بن مالك.

(3) سورة السجدة. الآية: 24.

(4) سورة البقرة. الآية: 61.

مُطبَّقٌ ـ أيضاً ـ بالنِسبة إلى أمّة الإسلام شَرْقاً وغَرْباً، جنوباً وشَمالاً؛ إذْ وعد الله الصالحين منهم أن يُورِثَهُم الأرضَ في الدُّنيا والجنَّةَ في الآخرةَ.

قال جلّ جلاله: **﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾**[1].

وقال عندَ ذِكْر أوْصافِ المؤمنين: **﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾**[2].

وممّا يُؤثرُ عنْ عُمرَ بْنِ الخطاب أنَّهُ خاطبَ المسلمين بقوله: «إنّكُمْ ـ أيُّها الرَّهطُ ـ أئمَّةٌ يُقْتَدَى بِكم»؛ وذلك لأنَّهم قدِ اقْتدَوْا بِمَنْ قبْلَهم من الصالحين؛ فاقتدى بهم مَنْ جاء بعدَهُم مِنَ المتقين.

وَكان عبد الله بن عمَرَ يقول ـ في دعائه ـ: «اللهم اجعلنا مِنْ أئمَةِ الْمُتَّقِينَ!».

فهذا ما يتعلّقُ بـ «الصفة الخامسةَ عشرَةَ» لعباد الرحمن وهي المشارُ إليها وإلى الَّتي قبلها بقوله

---

(1) سورة الأنبياء الآية: 104.

(2) سورة المؤمنين. الآية: 11.

تعالى: ﴿والَّذِينَ يقُولُون: رَبّنَا هبْ لَنَا مِنْ أزْوَاجِنَا وَذرّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ واجْعَلْنَا للْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾. أي: اجْعَلْ - يا ربَّنَا - كُلَّ واحدٍ مِنَّا إماماً يُـقْتَدَى بهِ في الدِّينِ والدّنيا.

الصفة السادسة عشرة

تَحلِّيهِمْ بالصَّبرِ كيفما كانوا وحيثما وُجدوا.

وإذا كان مدلولُ الصبرِ: هو حَبْسُ النّفسِ عنِ الْجَزَع وعن الشهواتِ والمكروهاتِ، فإنّ عبادَ الرحمنِ قد حَبسوا أَنفُسهم وأنفاسَهم فيما خُلِقُوا لأجْله، وصبروا على ما يُلائِمُ الطبائعَ البشرية.

فقد صبرروا على مُداومةِ طاعة اللّهِ وعبادتِه سِرّاً وعَلانيَّةً.

قال اللَّهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ﴾(1). وصبروا على نِعَمِ اللّهِ، فلمْ يَطْغُوا بها؛ بَلْ قابلُوها بالشُّكرِ، امتثالاً لقولَه تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ

(1) سورة المعارج. الآية: 23.

﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1] وصبروا على آلام المصائِب والنوائِب كيْفما كان نوعُها؛ حتّى قال قائِلهم:

تَـلَـذُّلِـيَ الآلامَ إِذْ أَنْـتَ مُـقْـسِـمِـي
وَإِنْ تَـخْـتَبِرْنِي فَهْيَ عِنْدِي مَطَالِعُ

وصبروا على تَرْكِ شهواتِ المعاصي كيفما كانتْ لذّاتُها.

وهذا الصّبرُ الأخيرُ هو أشَقُّ أنواعِ الصّبرِ على النفوسِ. وهو المعبّرُ عنه بـ«المُجاهدةِ العُظْمى».

وقد أشار إليه الإمامُ عبدُ الواحد بنُ عاشرٍ بقوله:

يُـجـاهِـدُ الـنَّـفْـسَ لِـرَبِّ الْـعَـالَـمِـيـنْ
وَيَـتَـحَـلَّـى بِـمَـقَـامَـاتِ الْـيَـقِـيـنْ

وما ذلك إلاّ لكونِه ثباتاً مُنبعِثاً من صميم الدينِ في مقابلةِ باعثِ الشهواتِ الجذّابة.

والثباتُ المنُبعثُ من الدين هو حالٌ من الأحوالِ التي تُثْمِرُها المعرفةُ التامةُ بعداوةِ الشهواتِ للنفوس الطاهرة، وبكلِّ ما هو مضادٌّ لأسباب سعادةِ الدّنيا ونعيمِ الآخرةِ.

---

(1) سورة ابراهيم. الآية: 7.

فإذا تَحلَّتِ النفوسُ بذلك الثباتِ الدِّيني تعوَّدتْ ـ حينئذٍ ـ أن تتركَ المُشتبهاتِ من الأقوالِ والأفعالِ.

فعلى ضَوْءِ ما تقدم يتَّضحُ لنا ـ جلِيّاً ـ أنْ الصبرَ الحقيقيَّ ناشِىءٌ عن عِلْمٍ وحالٍ وعمل.

وقد عرّفه أبو بكر ابن العربيّ بقوله: «الصبرُ: هو ثباتُ النَّفسِ على احتمالِ المشقّةِ في العملِ الطيّبِ، واحتمالِ المكروه. في سبيلِ الوصولِ إلى شريف الأغراض» انتهى النّص.

وقد ذكر اللَّهُ الصّبْرَ في خمسةٍ وتِسعين موضِعاً من كتابه العزيز.

منها قولُه تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ،إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾**[1].

وقد جاءت في الصبر أحاديثُ كثيرةٌ صحيحةٌ؛ منها قولُه عليه الصلاةُ والسلام: «الصَّبْرُ والاحْتِسَابُ أفضَلُ مِنْ عِتْقِ الرِّقَابِ، وَيُدْخِلُ اللَّهُ صَاحِبَهُما الجنَّةَ بِغَيْرِ

---

(1) سورة البقرة. الآية: 152.

حِسَابٍ﴾[1]. وممَّا يجدُرُ الانتباهُ اليْهِ أَنَّ كُلَّ حَسَنَةٍ لها أَجْرٌ؛ من عَشَرَةِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمَائَةِ ضِعْفٍ: ما عدا الصَّبْرَ؛ فإِنَّهُ لا يُحْصَى أَجْرُهُ.

قال اللَّهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2].

وقد مَنحَ اللَّهُ الصابرِينَ ثمانِيَةَ أنواعٍ مِنَ المِنَحِ الرَّبَّانِيَّةِ.

المِنحةُ الأولى: الأجرُ بغيرِ حساب، وقد تقدم توضيحُ ذلك في الآية السالفةِ الذِّكر.

المِنحةُ الثانيةُ: المحبَّةُ. قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[3].

المِنحةُ الثالثةُ: الغُرفةُ في الجنَّة. قال الله تعالى: ﴿يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾[4].

---

(1) رواه الطبراني عن الحكيم بن عمير الثمالي.

(2) سورة الزمر. الآية: 10.

(3) سورة آل عمران. الآية: 146.

(4) سورة الفرقان. الآية: 75.

المنحةُ الرابعةُ: النّصرُ قال اللّهُ تعالى: ﴿**إنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[1].

المِنحةُ الخامسةُ: البشارة.

المِنحةُ السَّادسة: الصَّلاةُ.

المِنحةُ السابعةُ: الرحمة.

المِنحةُ الثامنةُ: الهدايةُ. قال الله تعالى: ﴿**وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ.الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أُولئكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾[2].

والصبرُ ليس معناهُ الاسْتِسلامُ إلى الأحداثِ والنوائب؛ وإنّما هو تجلُّدٌ على آلامها وعزمٌ ثابتٌ على إزالِتها؛ مع الاعتقادِ بأنَّ الله ـ وحدَه ـ هو الملهِمُ الحقُّ إلى ما فيهِ خَيْرٌ وصلاحٌ من الاكْتساباتِ البشريَّةِ.

---

(1) سورة البقرة. الآية: 153.

(2) سورة البقرة. الآيات: 155 ـ 157.

والصَّبرُ تَعْتَرِيهِ الأحكام الخمسةُ: فالصبرُ على فعلِ الواجبِ حكمُهُ الوجوبُ؛ كالصَّبرِ على أداءِ الصلواتِ المفروضةِ أوِ الكَدِّ على العِيَالِ مثلاً.

والصَّبرُ على تركِ ما هو محرّمٌ حكمُهُ الوجوبُ أيضاً؛ كالصَّبْرِ على تركِ الزِّنا وشُرْب الخمر مثلاً.

والصّبرُ على تركِ ما يجبُ فعلُه حُكْمُه الحِرْمةُ؛ كالصبر على تركِ تغيير المُنكرِ والأمرِ بالمعروف لِمَنْ هو قادرٌ على ذلك، وكالصبرِ على ترك الأكلِ والإضرابِ على الطَّعام حتَّى يموتَ المُضرِبُ جُوعاً والصَّبرُ على فعلِ المندوبِ حُكُمُهُ النَّدب؛ كالصَّبْرِ على فِعْل النوافل غيرِ المَفروضة، والصَّدَقَاتِ التَّطوُّعِيَّة.

والصَّبرُ على فِعْلِ المكروهِ حُكمُهُ الكراهة كالصَّبرِ على قِلّةِ الأكلِ جدّاً.

والصَّبرُ على فعلِ المباح حكُمهُ الإباحةُ؛ كالصّبرِ على ما خُيِّرَ بَيْنَ فِعلِهِ وَتَرْكِهِ عَلَى السّوى؛ كالمشْيِ والجلوسِ وهلّمَ جرّاً. والعارفون بالله يَرَوْنَ أنّ الصّبرَ محمودٌ في جميع صُوَرِهِ المأذونِ فيها فعلُه؛ ما عدا

صورةً واحدةً؛ فإنَّه غيرُ محمودٍ عندهم فيها. تلك الصورةُ هي الصّبْرُ عنه ـ تعالى! ـ فيقولون بوجوبِ الفِرارِ إليه تعالى! ولا يُجِيزون للمؤمن أن يَصْبِرَ عن ذلك الفِرارِ طَرْفةَ عين؛ بلْ لا يَسْمحون بأقلَّ منها لِمَنْ ينتمِي إليهِم. وقدْ أحْسَنَ مَنْ قال مِنهم مُعبّراً عَنْ أقْصَى مذهَبِهِمْ في الصَّبرِ بهذِهِ الأَبْيَاتِ:

عَبَراتٌ خَطَّطْنَ فِي الْخَدِّ سَطْراً
قَدْ قَرَاهَا مَنْ لَيْسَ يُحْسِنُ يَقْرَا

إنَّ صَوْتَ الْمُحِبِّ مِنْ أَلَمِ الشَّوْ
قِ وَخَوْفِ الْفِرَاقِ يُورِثُ ضُرَّاً

صَابَرَ الصَّبْرَ فَاسْتَغَاثَ بِهِ الصَّبْـ
ـرُ فَصَاحَ الْمُحِبُّ بِالصَّبْرِ صَبْراً

فهذا ما يتعلَّقُ بـ«الصِّفةِ السادسةَ عشْرَةَ» لعبادِ الرحمنِ، وهي المُشارُ إلَيْها بِقولِهِ ـ تعالى: **﴿فأُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَماً خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾**. أي: أُولئك المؤمنون المتَّصفون بهذِهِ الصّفاتِ المحمودةِ

سيُكافِئُهم اللَّهُ ـ لِصَبْرِهِمْ عَلَى السَّراءِ والضَّرَّاءِ ـ بِالمَنزِلةِ العُلْيا في جنَّةِ الخُلْدِ والنَّعيم؛ تِلْكَ الجنّةُ الَّتِي يُسْتَقْبَلون فيها بتحيَّةِ الملائكةِ ودُعائِهِم لهُم بالخيرِ العَميم، وهم هُناك خالدون؛ لا يموتون ولا يَخْرُجون من مكانٍ طاب لهمُ اسْتِقراراً ومُكوثاً. قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ.جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وذُرِّيَّاتِهِمْ والْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ.سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ،فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[1].

فهذا ما سَمَحَتْ بِهِ الظُّروفُ وجادتْ بِهِ القَرِيحةُ: مِنْ إلْقَاءِ بعضِ الضَّوْءِ على صفاتِ عبادِ الرحمن، الّتي جاءَتْ بها أرْبَعَ عشْرَةَ آيةً فِي أواخِرِ سورةِ «الفُرقَان».ومنَ اللَّهِ ارْجو التوفيقَ، وإلَيْهِ أبْتهلُ؛ ليُرْشِدَنِي إلى الاقْتداءِ بعبادِ الرّحمن في الاعْتقادِ

(1) سورة الرعد. الآيات: 22، 23، 24.

والقولِ والعملِ؛ حتَّى أكونَ مُرتاحَ البال، مُستقِرَّ الفِكرِ، مُطمئِنَّ الضمير: حينما أتمثَّلُ بما أنْشدهُ القاضي عياض ـ رَحِمهُ اللَّهِ ـ:

وَمِـمَّـا زَادَنِـي شَـرَفـاً وَتِـيـهـاً
وَكِـدْتُ بِـأَخْـمَـصِـي أَطَـأُ الـثُّـرَيَّـا

دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ: «يَا عِبَادِي»
وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيَّاً

وفي الختام أحمد الله الذي قد ألهمني أن أتوّج هذا الموضوع بقصيدة؛قد جادت بها قريحة القلب واللّسان، تحت عنوان: «في ركاب عباد الرّحمن». وها هوذا نصّها:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

صلّى اللّه على محمّد وآله وصحبه وسلّم

فِي رِكابِ عبادِ الرحمن

يَا رَبَّةَ الشِّعْرِ! هَاتِي الشِّعْرَ أَلْحَانَا
لاَ تَحْرِمِينِي بِمَا قَدْ جُدْتِ أَوْزَانَا
فَالشَّوْقُ مِنّي إِلَيْكِ كَانَ عَنْ أَمَلٍ
وَالجُودُ مِنْكِ إِلَيَّ كَانَ دَيْدَانَا[1]

إِنْ كَانَ فِي الشِّعْرِ مَا يُزْرِي بِصَاحِبِهِ
فَقَدْ أَمَدَّ بِقَوْلِ الْفَضْلِ «حَسَّانَا»[2]
إِنْ فَاهَ بِاللَّغْوِ بَعْضَ الْوَقْتِ مُنْشِدُهُ
فَقَدْ أَنَارَ طَرِيقَ الْحَقِّ أَزْمَانَا

---

(1) «ديدانا»: عادة.

(2) «حسّانا»: هو حسان بن ثابت شاعر الرسول، عليه الصلاة والسلام توفي سنة 40هـ = 674م.

إِذْ كُـلُّ قَـوْلٍ بِـقَـدْرِ قَـصْـدِ صَـاحِـبِـهِ
والْـخَـيْـرُ بَـاقٍ لِأَهْـلِ الْـخَـيْـرِ عُـنْـوَانَـا

يَا طَالِبَ الْعِزِّ! لاَ بِالْـجَاهِ تَكْسِبُهُ
كَـمْ عَـادَ جَـاهٌ عَـلَـى الْـمَـغْـرُورِ أَحْـزَانَـا

إِنْ كُنْتَ تَبْغِي سَبِيلَ الْعِزِّ نَسْلُكُهُ
فَـاسْـلُـكْ سَـبِـيـلاً مِـنَ الأَوْهَـامِ عُـرْيَـانَـا

ذَاكَ الـسَّـبِـيـلُ جُـنُـودُ الـلَّـهِ تَـحْـرُسُـهُ
أَضْـحَـى بِـفَـضْـلِ كِـتَـابِ الـلَّـهِ أَمَّـانَـا

لِـلَّـهِ دَرُّ عِـبَـادٍ طَـابَ مُـخْـبَـرُهُـمْ
وَدَامَ مَـنْـظَـرُهُـمْ بِـالـشَّـرْعِ مُـزْدَانَـا

سَـادُوا وَفَـازُوا بِـأَوْصَـافٍ مُـرَتَّـلَـةٍ
فِـي مُـنْـتَـهَـى سُـورَةِ «الْـفُـرْقَـانِ» تِـبْـيَـانَـا

قَـوْمٌ أُضِـيـفَ إِلَـى «الرَّحْـمَـنِ» لَـفْـظُـهُـمْ
وَقَـدْ تَـخَـطَّـوْا بِـذَاكَ الـلَّـفْـظِ أَعْـنَـانَـا

يَـمْـشُـونَ «هَـوْنَـاً» كَـأَنَّ الأَرْضَ فِـي وَجَـعٍ
مِـنِ اقْـتِـرَافِ الْـعُـصَـاةِ الـذَّنْـبَ عِـصْـيَـانَـا

فَالْقَصْدُ مِنهُمْ سَلِيمٌ فِي مَوَاضِعِهِ
والْقَوْلُ مِنهُمْ سَدِيدٌ كَيْفَمَا بَانَا

وَالْفِعْلُ مِنهُمْ صَلاَةُ ٱللَّيْلِ قُرْبَتُهُمْ
وَفِي النَّهَارِ جِهَادٌ حَيْثُمَا كَانَا

فَبِالدُّعَاءِ إِلَى الرَّحْمَنِ مَرْجِعُهُمْ
وَالْجُودُ ظَلَّ عَلَى التَّقْتِيرِ سُلْطَانَا

لا يُشرِكُونَ سِوَى الْمَعْبُودِ فِي أَرَبِ
لاَ يَقْتُلُونَ وَلاَ يَزْنُونَ بُهْتَانَاً

لاَ يَشْهَدُونَ فِعَالَ الزُّورِ عَادَتَهُمْ
بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً كَيْفَمَا كَانَا

قَدْ أَحْسَنُوا السَّمْعَ لِلْقُرْآنِ مُلْهِمِهِمْ
وَلَمْ يَخِرُّوا عَلى الآيَاتِ عُمْيَانَاً

وَقَدْ تَرَجَّوْا مِنَ الْوَهَّابِ مَوْهِبَةً
فَكَانَ ذَاكَ حَلاَئِلَ وَوِلْدَانَا

نِعْمَ الدُّعَاءُ دُعَاؤُهُمْ عَلَى أَمَلِ
أنْ يُصْبِحُوا قَادةً فِي الْخَيْرِ أَعْوَانَا

فَلَـمْ يُـخَـيِّـبْـهُـمُ الـلَّـهُ بِـمَـا صَـبَـرُوا
والـنَّـصْـرُ مِـنْـهُ إِلَـيْـهِـمْ كَـانَ إِحْـسَـانَـا

قَـوْمٌ أَحَـبُّـوا بِـحُـبِّ الـلَّـهِ شِـرْعَـتَـهُ
فَـقَـدَّمُـوا الـنَّـفْـسَ وَالأَنْـفَـاسَ قُـرْبَـانَـا

صَـانُـوا مَـقَـامَ إِلَـهِ الْـخَـلْـقِ فَـاتَّـخَـذُوا
لِـلْـقَـوْلِ حَـدّاً ولِـلأَعْـمَـالِ مِـيـزَانَـا

تَابُوا وَعَاشُوا طَوَالَ الْعُمْرِ فِي وَرَعٍ
بِـالـزُّهْـدِ شَـادُوا مَـقَـامَ الْـفَـقْـرِ بُـنْـيَـانَـا

بِـالـصَّـبْـرِ لاَذُوا وَزَادَ فِـي تَـوَكُّـلِـهِـمْ
كَوْنُ رِضَاهُـمْ عَنِ الْـمَقْدُورِ شُكْـرَانَـا

قَـدِ اسْـتَـنَـارُوا بِـقُـرْبِ الـلَّـهِ مَـعْـرِفَـةً
والْـحُـبُّ مِـنْـهُ لَـهُـمْ نَـوَّرَ وِجْـدَانَـا

والْخُوَفُ مِنْهُ أَقَضَّ مِنْ مَضَاجِعِهِمْ
لَـكِـنَّ نَـجْـمَ الـرَّجَـا أَضَـاءَ أَرْكَـانَـا

أَكْـرِمْ بِـشَـوْقٍ بَـدَا لِـلأُنْـسِ طَـالِـعَـةً
حَتَّى اطْمَأَنَّتْ نُفُوسُ الْخَيْرِ إِيمَانَا

طُوبَى لِرَاءٍ بِعَيْنِ الْقَلْبِ شَاهِدَهُ
وَبِالْيَقِينِ سَمَا وَنَالَ رِضْوَانَا

يَا طَالِبَ الْعِلْمِ لاَ تَقْنَعُ بِظَاهِرِهِ
إِنَّ الظَّوَاهِرَ لاَ تُغْنِيكَ إِيقَانَا

فَغُصْ بِحَارَ الْعُلُوم تُلْفِ دَاخِلَهَا
أَغْلَى الْجَوَاهِرِ: لُؤْلُؤاً وَمَرْجَانَا

لاَ تُنْكِرَنَّ عُلُوماً أَنْتَ تَجْهَلُهَا
فَالْعِلْمُ أَضْحَى بِفَهْمِ النَّاسِ أَلْوَانَا

لَوْلاَ اخْتِلاَفُ فُهُومِ النَّاسِ مَا اخْتَلَفُوا
وَاللَّهُ حَكَّمَ فِي الآرَاءِ فُرْقَانَا

فَالرَّاسِخُونَ لَهُمْ فِي الْوَحْيِ بُغْيَتُهُمْ
وَالزَّائِغُونَ جَنَوْا بِالزَّيْغِ حِرْمَانَا

مَا لِلطَّبِيعَةِ غَرَّتْ بِزَخَارِفِهَا
وَأَزْلَقَتْ فِي سَرَابِ الْوَهْمِ شُبَّانَا

مَالُوا إِلَيْهَا؛ وَبِئْسَ الْمَيْلُ مَيْلُهُمُ
فَأَرْضَعَتْهُمْ؛ وَمَا الْمَرْضُوعُ أَلْبَانَا

بَـلْ هُـوَ سُـمٌّ زُعَـافٌ؛ وَيْـحَ شَـارِبِـهِ!
وَوَيْــحَ سَــاقٍ بِــذَاكَ الـسُّــمِّ أَبْــدَانَــا

لَـيْسَ الْـوِلاَيَـةُ عِـنْـدَ الـلَّـهِ فَـلْـسَـفَـةً
لَـمْ تُـجْـدِ دِيـنـاً وَلَـمْ تُـنَـمِّ عِـرْفَـانَـا

إِنَّ الْــوِلاَيَــةَ عِــنْــدَ الــلَّــهِ مَــرْكَــبَــةٌ
قَـدْ قَـادَهَـا مَـنْ غَـدَا لِـلـشَّـرْعِ صَـوَّانَـا

لَـيْـسَ الْـوِلاَيَـةُ عِـنْـدَ الـلَّـهِ دَرْوَشَـةً
وَلاَ ظُـهُـوراً بِـزِيِّ الْـقَـوْمِ سُـلْـوَانـا

إِنَّ الْــوِلاَيَــةَ تَــكْــلِــيــفٌ وَمَــعْــرَكَــةٌ
دَارَتْ رَحَـاهَـا، وَرَاحَ الْـقَـلْـبُ مَـيْـدَانَـا

لَـيْـسَ الْـوِلاَيَـةُ عِـنْـدَ الـلَّـهِ مَـشْـيَـخَـةً
وَلاَ الـتَّـبَـاهِـي بِـأَوْفَـى الْـقَـوْمِ أَخْـدَانَـا

إِنَّ الْــوِلاَيَــةَ بَــيْــنَ الــنَّــاسِ مَــرْحَــمَــةٌ
وَالْـمُـؤْمِـنُـونَ غَـدَوْا بِـالـدِّيـنِ إِخْـوَانَـا

لَيْسَ الْوِلاَيَةُ سَجْنَ النَّفْسِ فِي قَفَصٍ
وَلاَ ٱرْتِـكَـانـاً إِلَـى الْـخَـيَـالِ مَـجَّـانَـا

إِنَّ الْوِلاَيَةَ جَعْلُ النَّفسِ فِي عَمَلٍ
يُرْضِي الضَّمِيرَ بِعِلْمٍ دَامَ بُرْهَانَا

أَيْنَ الْوِلاَيَةُ وَالإِسْلاَمُ فِي مَرَضٍ
عَزَّ الشِّفَاءُ وَبَاتَ الدَّاءُ يَقْظَانَا

أَيْنَ الْوِلاَيَةُ وَالأَحْكَامُ عَاطِلَةٌ
يَا وَيْلَ قَوْمٍ غِنَاهُمْ ظَلَّ قُرْآنَا!!

أَيْنَ الْوَلِيُّ وَأَرْضُ «الْقُدْسِ» نَجَّسَهَا
قَزْمُ الْيَهُودِ وَفِيهَا نَامَ فَرْحَانَا!!

شَرَّدَ شَعْباً أَصِيلاً فِي إِقَامَتِهِ
وَبِالتَّحدِّي أَذَاقَ الْعُرْبَ خِذْلاَنَا!!

نِعْمَ الْوِلاَيَةُ فِي «الْفَارُوقِ»[1] قَدْ سَطَعتْ
أَكْرِمْ بِهِ مِنْ وَلِيٍّ قَادَ فُرْسَانَا

حَتَّى اطْمَأَنَّ بِفَتْحِ «الْقُدْسِ» خَاطِرُهُ
وَدَكَّ «فُرْساً» كَمَا قَدْ دَكَّ «رُومَانَا»

(1) «الفاروق» هو عمر بن الخطاب المتوفى سنة 23هـ = 644م.

نِعْمَ الْوِلاَيَةُ فِي «الْكُرْدِيِّ»[1] قَد هَزَمَتْ
«جَيْشَ الصَّلِيبِ» مُشَاةً ثُمَّ رُكْبَانَا

فَالْخِزْيُ كَانَ لَهُمْ بِأَسْرِ سَيِّدِهِمْ
وَالنَّصْرُ دَامَ لَنَا فِي «الْقُدس» أَزْمَانَا

رُحْمَاكَ يَا رَبُّ لِلْمُضْطَرِّ وَاسِعَةٌ
إِنْ كَانَ يَرْجُو مِنَ الْغَفَّارِ غُفْرَانَا

اللَّهُ أَكْبَرُ وَالتَّكْبِيرُ عَادَتُنَا
لَيْسَ الْمُكَاءُ وَلاَ التَّصْفِيقُ إِعْلاَنَا

ثُمَّ الصَّلاَةُ عَلَى الْمَحْبُوبِ أَرَّجَهَا
مِسْكُ السَّلاَمِ وَكَانَ اللَّهُ رَحْمَانَا

باريز

الدكتور: محمّد بن عبد الكريم الجزائريّ

(1) «الكرديّ»: هو يوسف بن أيوب الكردي المعروف بـ«صلاح الدين الأيوبي» المتوفّي سنة 589 هـ = 1193م.

المحتوى

نتاج المؤلف

المؤلفات

1 - مأساة كتاب في تاريخ الكُتَّاب.
2 - الثقافة ومآسي رجالها.
3 - القذافي والمتقولون عليه.
4 - الحكم الشرعي لرؤية الهلال بالأبصار وإبطال نظرية الحساب الفلكي في الصوم والأفطار.
5 - المقّري وكتابه «نفخ الطيب». (رسالة دكتوراه في الأدب العربي).
6 - حياة حمدان بن عثمان خوجة الجزائري.
7 - مدينة وهران.
8 - عبد الرحمان الثعالبي وضريحه.
9 - مخطوطات جزائرية في مكتبات إسطنبول.
10 - الدين الإسلامي عقيدة وشريعة.
11 - التصوّف في ميزان الإسلام.
12 - عباد الرحمن في سورة الفرقان.
13 - الدعوة الإسلامية والاستعمار والتبشير والصهيونية.
14 - الربا في ميزان الإسلام.

15 ـ الطهارة في ميزان الإسلام.
16 ـ الشورى في ميزان الإسلام.
17 ـ الجهاد في ميزان الإسلام.
18 ـ الإسلام ثقافة واجتهاد، وليس بتقليد أعمى.
19 ـ تصويب أخطاء المجلس الإسلامي الأوروبي.
20 ـ الهجرة من الأقطار الإسلامية إلى الأقطار الإفرنجية في ميزان الإسلام.
21 ـ قبس من مولد محمّد بن عبد الله وعيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام.
22 ـ الحكم الشرعي لزواج المسلم بغير المسلمة وزواج المسلمة بغير المسلم.
23 ـ لغة كلّ أمة روح ثقافتها.
24 ـ مقدمة في علوم القرآن وعلوم التفسير.
25 ـ من توجيهات القرآن العظيم. (تفسير أنجز منه الجزء الأول لسورة الفاتحة والبقرة).
26 ـ الذكاة في ميزان الإسلام.
27 ـ الإسراء والمعراج.
28 ـ تبديل الجنسيّة ردّة وخيانة.
29 ـ دور المسجد في الإسلام.
30 ـ مساجد الضرار من جديد.
31 ـ فضائح تكشفها فخاخ الديمقراطية في الجزائر!!

الترجمات

32 ـ تعريب مذكرات حمدان بن عثمان خوجة الجزائري (من اللغة الفرنسية).
33 ـ تعريب كتاب «المرآة» لحمدان بن عثمان خوجه الجزائري (من اللغة الفرنسية).

34 ـ تعريب محاضرة «القرآن والعلوم الحديثة» للدكتور «موريس بيكاي».

التحقيقات

35 ـ التحفة المرضية، لمحمد بن ميمون الجزائري (رسالة ديبلوم الدراسات العليا في التاريخ الحديث).

36 ـ بدائع السّلك في طبائع الملك، لمحمد بن الأزرق الأندلسي (جزآن).

37 ـ وشاح الكتائب، لقدور بن رويلة (كاتب الأمير عبد القادر الجزائري).

38 ـ اتحاف المنصفين والأدباء (لحمدان بن عثمان خوجة الجزائري).

39 ـ السّعي المحمود، في نظام الجنود، لمحمّد بن العنابي الجزائري.

40 ـ رحلة الباي محمّد الكبير، لأحمد بن هطال الجزائري.

41 ـ الغنية، للقاضي عياض المغربي.

42 ـ مقدمة في صناعة الشعر والنثر، لمحمّد النواجي المصري.

43 ـ الاكتراث في حقوق الإناث، لمحمّد بن الخوجة الجزائري.

44 ـ بهجة الناظر.. لعبد القادر المشرفي الجزائري.

45 ـ ثلاث رسائل جزائرية في حكم الهجرة، لأحمد الونشريسي، والأمير عبد القادر ومحمّد بن الشاهد.

46 ـ رسالة الإمام مالك بن أنس إلى الخليفة هارون الرّشيد.

2